

المثوى والمأوى في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

د. ثناء نجاتي عياش*

تاريخ القبول: ٢٠١٠/٦/٦

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٩/٨/٢٣

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل لفظتي المثوى والمأوى في القرآن الكريم؛ لإبراز الفروق الدلالية بينهما في الاستخدام القرآني.

وسيحاول هذا البحث معرفة بعض الأسرار البلاغية لهاتين اللفظتين في القرآن الكريم، منطلقاً من أن اللفظة في القرآن الكريم خصوصية بحيث تأتي مستقرة في موضعها، ولا يمكن لغيرها أن تحل محلها.

ومن أبرز النتائج التي خلص إليها هذا البحث: مدلول لفظة المأوى في القرآن الكريم أوسع وأشمل من مدلول المثوى، بدليل أنها جاءت في وصف الأعمال الدنيوية في ثلاثة عشر موضعاً بينما جاءت المثوى في ثلاثة مواضع فقط، وأطلقت المأوى على مصير المؤمنين وغيرهم في الآخرة، بينما اقتصر المثوى على وصف مآل غير المؤمنين فقط، ولم تطلق على إقامة المؤمنين في الجنة على الرغم من أن الثواء يدل على الإقامة الطويلة مع الاستقرار.

* قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الهاشمية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

Abstract***A rhetorical study of the words shelter and resting place in the Holy Qur'an.***

This research studies and analyzes the terms of shelter and resting place in the Holy Qur'an; to highlight the semantic differences between them in the use of the Holy the Qur'an .

This research will try to learn some secrets of the rhetoric of these terms in the Holy Qur'an. A starting point of that is the term in the Q Holy Qur'an has its privacy and stability in which cannot be replaced by other words.

Among the most prominent of the findings of this research : that t the word shelter in the Holy Quran is broader and more comprehensive than the meaning of the resting place, with evidence that it was mentioned in thirteen locations to describe the mundane works, while the word resting place was occurred in three places only, and it was used to describe the fate of the believers and others in the hereafter. While the word rest was used, only to describe the fate of the non-believers and was not used to describe the residence of the believers in heaven, although it demonstrates the residence with long stability

المقدمة:

من مظاهر الإعجاز في النص القرآني، قابليته لتحمل عدة أوجه للفهم والتأويل من خلال السياق، ومن خلال تطور وسائل البحث، وكلما تأملنا فيه وجدنا شيئاً جديداً، فمظاهر إعجازه لا تتوقف بل تتجدد عبر العصور.

ويأتي هذا البحث ليكون لبنة من سلسلة الدراسات التي تبحث في بلاغة اللفظة في النص القرآني، وذلك عن طريق تتبع لفظتي المثنوى والمأوى حيثما وردتا في القرآن الكريم، لبيان أن اللفظة في النص القرآني خصوصية بحيث لا يمكن لغيرها أن يسد مسدها حتى وإن تقاربتا في الدلالة العامة.

واتخذ هذا البحث من النص القرآني ركيزته الأولى في القراءة والتحليل؛ لأنه كما يقول الزمكاني: "فعلى الطالب لفهم معاني كتاب الله العزيز أن يتبع ألفاظه والوقوف على مقاصدها من مظانها ليتوصل بعد ذلك إلى معرفته، فإنه لا سبيل إلى العمل به إلا بعد العلم به، وذلك فرض لازم، والمُخلّ به مدخول الفهم في علمه"^(١) ثم جاءت الاستعانة بما ورد في المعاجم لمحاولة الربط بين المعنى اللغوي للفظه والإيحاءات الدلالية التي أكسبها إياها السياق، وكان لا بد من الاسترشاد بأقوال المفسرين الذين أسهمت آراؤهم في إضاءة الطريق إلى فهم النص القرآني؛ لإدراك بعض أسرار البلاغة.

وسيحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية :

ما دلالة المثنوى والمأوى في القرآن الكريم ؟

أيهما أوسع في الدلالة المأوى أم المثنوى في الاستخدام القرآني؟

لَمْ أَطْلَقْتَ المثنوى على وصف مآل غير المؤمنين ولم تطلق على إقامتهم في الجنة؟

لَمْ أَطْلَقْتَ المأوى على الجنة في ثلاثة مواضع فقط بينما أَطْلَقْتَ على جهنم والنار والجحيم في تسعة عشر موضعاً؟

(١) الزمكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم (٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م): البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن. تحقيق: خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤، ص ٩٥ .

المثوى في القرآن الكريم:

ورد (المثوى) في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعاً منها تسعة في بيان مآل الكفار يوم القيامة، وثلاثة مواضع في وصف الإقامة الدنيوية، وفي موضع واحد مشترك بين الدنيا والآخرة* . والمثوى لغة يدل على طول المقام؛ لذا يقال: أثويت بالمكان إذا أطلت الإقامة فيه، والمثوى الموضع الذي يقام به، وبه سمي المنزل مثوى ويقال للغريب إذا لزم بلدة هو ثاويها^(١)، وبما أن الثواء يدل على طول الإقامة يقال للمقبور: قد ثوي؛ لأن ذلك ثواء لا أطول منه^(٢)، ونحن نقول عند وفاة شخص ما: شُيِّعَ إلى مثواه الأخير حيث الإقامة الأبدية.

إذن المثوى يطلق على المكوث الطويل مع الاستقرار سواء في ذلك الحياة أو الممات، فالمكان الذي تطول به الإقامة هو المثوى كما في المنزل؛ لذا يقال لرب البيت أبو مثواه، ويقال هذه ثوية فلان امرأته التي يثوي إليها^(٣).

ويمكننا التمييز في النص القرآني بين المثوى الدال على الإقامة في جهنم، والمثوى الدال على الإقامة في الدنيا ففي قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أُولِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (الأنعام ١٢٨). تذكر الآية جانباً من الحوار الذي سيدور يوم القيامة بين الله - سبحانه وتعالى - وفئة من الناس اتخذت الجنة أولياء لهم من دون الله؛ لذا فالنار مثوى لهم، بمعنى منزلهم الماكثين فيه مكوثاً مخلداً إلى ما شاء الله الخلود فيها^(٤)، فالمثوى هنا " اسم مكان من ثوى بالمكان إذا أقام به إقامة سكنى أو إطالة مكث، وقد بين الثواء بالخلود بقوله خالدين فيها"^(٥)، مما يعني أنه لا مكان لهم إلا النار ليطلقوا الإقامة فيها.

* ينظر جدول رقم (٣).

(١) ابن منظور، محمد بن جلال الدين بن مكرم (٧١١هـ): لسان العرب المحيط. تقديم: عبد الله العلي، دار الجيل، بيروت، ودار لسان العرب، بيروت، ١٩٨٨، (ثوي).

(٢) السابق، المادة نفسها، والزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م): أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤، (ثوي).

(٣) السابق، المادة نفسها.

(٤) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م): تفسير القرآن العظيم. تقديم: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفحاء، دمشق ودار السلام، الرياض، ١٩٨٨، ج ٢، ص ٢٣٧.

(٥) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٨، ص ٧٠.

ويدل الاستثناء في الآية السابقة على أنهم يخلدون فترة من الزمن في النار بمشيئة الله ، ثم يخرجون منها بعد ذلك؛ لذا خُتِمت الآية بـ (حكيم عليم)" لأن تخليد هؤلاء الكفار في النار صادر عن حكمة، والعليم يعلم بعلمه أحوال خلقه، وما يستحقونه من ثواب أو عقاب"^(١).

وكعادة النص القرآني في المزج بين أساليب الترغيب والترهيب عطف قوله تعالى "ويوم يحشرهم" على قوله تعالى في الآية السابقة لها "لهم دار السلام عند ربهم" فبعد ما ذكر ثواب المؤمنين بدار السلام ناسب أن يعطف عليه ذكر جزاء الكافرين^(٢)، فالمقابلة صورت الفرق الشاسع بين مصير كل فئة.

وسردت الآية السابقة تصويراً دقيقاً لما سيكون عليه الحال يوم الحشر؛ ولذلك قدمه القرآن كما لو تمّ فعلاً بصيغة الفعل الماضي" وقال أولياؤهم" بدلاً من يقولون أو سيقولون .

ويلفتنا في الآية السابقة أن الذين ضلوا هم الذين يتكلمون وليسوا من كانوا السبب في إضلالهم، ولعل " رهبة الموقف ألجمتهم فلم يعد لديهم القدرة على الكلام"^(٣)، وهم الذين كانوا فيما مضى يتكلمون وما على الأتباع سوى التنفيذ، لذا جاء قولهم "ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا" ليدل على استسلامهم لرب العالمين، وليشعر بمقدار ندمهم وتحسّرهم على إطاعتهم لأوليائهم وقبولهم ما يطلبونه منهم، واتباعهم للهوى، وتكذيب البعث"^(٤) وبما أن هذا الاعتراف جاء بعد فوات الأوان فلا قيمة له؟ لذا جاء الرد الإلهي عليهم، ليشعرهم بسوء مصيرهم يوم القيامة (الخلود في النار).

وبما أن الإقامة في النار تبدو طويلة جداً لمن يعاني من حرها وطعامها وشرابها وعذابها^(٥)، جاءت استغاثتهم بخزنة جهنم للطلب من الله - سبحانه وتعالى - أن يخفف عنهم العذاب ليوم واحد فقط، كما اتضح من قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ} (غافر ٤٩) ومعنى هذا أن طلب تخفيف العذاب ليوم واحد فقط يصبح أمنية لمن هم في داخلها، وفي هذا كناية عن شدة العذاب وألمه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن طلبهم السابق يكشف عن شخصيتهم المعاندة والمصرة على الكفر - حتى وهم في أشد لحظات العذاب - بدليل

(١) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (٧٥٤هـ / ١٣٥٣ م): البحر المحيط في التفسير. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٢، ج ٤، ص ٢٢٣ وابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧، ج ٨، ص ٧٢.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٨، ص ٦٦ .

(٣) أبو السعود، محمد العمادي الحنفي (٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط ٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢، ج ٢، ص ٢٨٣ .

(٤) السابق، الصفحة نفسها.

(٥) السابق، ج ٢، ص ٢٣٧ .

قولهم للملائكة " ادعوا ربكم " ولم يقولوا " ربنا "، وكان يجدر بهم أن يتوجهوا بالدعاء مباشرة إلى الله سبحانه وتعالى .

وكما صورت الآية السابقة مشهداً من مشاهد يوم القيامة صور قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} (الزمر ٦٠) حال الذين كذبوا على الله يوم القيامة، وذلك بتسليط الصورة على وجوههم التي يعلوها السواد كناية عن سوء حالهم، وإحساسهم - بعد فوات الأوان - بالخسران المبين؛ لذا جاء الاستفهام التقريري في قوله "أليس في جهنم" تفسيراً لاسوداد وجوههم^(١)، ووصفوا بالمتكبرين لأن "عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسباً لكبريائهم؛ لأن المتكبر إذا كان سيء الوجه انكسرت كبرياؤه؛ لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه"^(٢)، واختار الوجه لأن ملامح الانكسار تبدو عليه بجلاء. واسوداد وجوههم يدل على الحط من شأنهم، وهم الذين كانوا يتطاولون على غيرهم في الدنيا. وتمت (في) في قوله " في جهنم " الهيئة السيئة التي سيكونون عليها بدلالتها على الاستغراق .

كما أن تعريف المتكبرين يدل على الاستغراق أيضاً، فهم في أعلى مراتب التكبر يكفي أنهم استكبروا على الله كما صرح بذلك قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (غافر ٦٠)، لذا استحقوا جهنم لتكون مكان إقامتهم. ولئن سلطت الآيات السابقة الضوء على سوء حال المتكبرين يوم القيامة، فإنها ضمناً تركت للمتلقي الفرصة لاستدعاء الصورة المقابلة لها في الدنيا عندما اغتروا واستكبروا وتمادوا في طغيانهم، ولولا ذلك لما كانت إقامتهم الآن في النار .

ومن مظاهر إعجاز النص القرآني اتفاق بعض آياته في المعنى العام، وفي خواتيمها، ومع ذلك نجد فروقا دقيقة فيما بينها كما في قوله تعالى: {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ} (النحل ٢٩) وقوله تعالى: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ} (غافر ٧٦) وقوله تعالى: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ} (الزمر ٧٢)، وافتتحت الآيات الثلاث بالأمر المباشر للمشرّكين بالدخول من أبواب جهنم؛ لأنه لم يعد لديهم حجة الآن، فقد ثبت عليهم القول، واستحقوا دخول النار، وجمعت أبواب جهنم للدلالة على كثرة الداخلين فيها، وهم لا يدخلون من باب واحد وإنما من عدة أبواب، فكل صنف يدخل من بابة المعدّ له^(٣)، كما أن صيغة الأمر (ادخلوا) جاءت لكسر شوكتهم ولإذلالهم؛ لأن الآيات

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٢٤، ص ٥٠ - ٥١.

(٢) السابق، ج ٢٤، ص ٥١.

(٣) السابق، ج ٣، ص ٣٥٦.

وصفتهم بالمتكبرين؛ وفُيِدَ الأمر (ادخلوا) بالخلود وهو الثواء الذي لا ينقطع، وليس أمراً بمطلق الدخول. وجاء التذييل "فبئس مثوى المتكبرين" لزم مدخل المتكبرين، لأن نفس الدخول لا يدوم، فلم يبالغ في ذمه بخلاف الثواء الدائم^(١)؛ ولهذا لم يقل بئس مدخل المتكبرين مع أنها مناسبة لـ (ادخلوا) لإفادة الديمومة والخلود، وهذا المعنى تفيد كلفة مثوى وليس كلمة مدخل^(٢)، والمعنى المراد "فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه^(٣)؛ لذا عدّ الزمخشري الأمر لهم بالدخول من أبواب جهنم من باب الشماتة^(٤)."

وخُتِمَت الآيات بأسلوب الذم (بئس) لتوبيخهم وذمهم؛ لاختيارهم أن يكونوا في مثل هذا المكان في يوم القيامة. وحذف المخصوص بالذم (جهنم) ولم يصفها بالدار كما عبّر عن الجنة تحقيراً لهم، وأنهم ليسوا في جهنم بمنزلة أهل الدار بل هم متراصون في النار في محل ثوائهم^(٥).

وعلى الرغم من اتفاق الآيات الثلاث في الانتهاء بأسلوب الذم فإن آية النحل فيها زيادة اللام في (فلبئس) وخلت آيتا غافر والزمر منها، ولعل مردّ هذا الأمر إلى أن سياق سورة النحل أفاض في وصف الكافرين وأعمالهم وأموالهم؛ لذا ناسب الزيادة في الوصف الزيادة في التوكيد^(٦) كما أن آية النحل تتحدث عن قوم ضلوا وأضلوا، إذن لم يقتصر ضلالهم على أنفسهم كما يتضح من قوله تعالى: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} (النحل ٢٥)، فاستحقوا مضاعفة العذاب لذلك^(٧)، ولما كان هذا الأمر خاصاً بسورة النحل خلت آيتا الزمر وغافر من التوكيد. كما أن ردهم {وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم} قالوا أساطير الأولين} (النحل ٢٤) ينم عن عنادهم وإصرارهم على باطلهم^(٨)، إذن زيادة العناد والاستكبار اقتضت زيادة العذاب فجاءت اللام الدالة على التوكيد في (فلبئس) متناسبة مع سياقها.

وتخبر آية النحل "عن حال المشركين عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ۖ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ

(١) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٢٥.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٦٦ وابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ٢٠٧.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٧٤٩.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٤٣٣.

(٥) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ١٤.

(٦) السامرائي، فاضل، التعبير القرآني. دار عمار، عمان، ١٩٩٨، ص ١٢٦.

(٧) السابق، ص ١٢٦.

(٨) والغرناطي، أحمد بن إبراهيم: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه المتشابه اللفظ من آي التنزيل. تحقيق: سعيد

الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ج ٢، ص ٧٣٨.

(٩) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٧٤٩.

تَعْمَلُونَ} (النحل ٢٨)، ثم يأتي الأمر المباشر لهم "فادخلوا أبواب جهنم..." يقال لهم مثل هذا الكلام تمهيداً لما ينتظرهم من العذاب الأكبر، وبذا يعرفون مصيرهم منذ لحظة مماتهم.

ويرى الكرمانى أن قوله تعالى "فلبئس مثوى المتكبرين" ليس له في القرآن نظير، والفاء للعطف على فاء التعقيب في قوله (فادخلوا) واللام في (فلبئس) للتأكيد يجري مجرى القسم موافقة لقوله تعالى في وصف الجنة^(١): {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} (النحل ٣٠).

أما في آية الزمر فيتضح من الفعل المبني للمجهول (قيل) أن الملائكة تحاور الكفار قبل دخولهم النار، وبعد الانتهاء من المحاورة يأتي الأمر لهم بدخول النار^(٢)، وختمت الآية بأسلوب الذم، وحذف المخصوص بالذم لدلالة ما قبله عليه، والتقدير فبئس مثوى المتكبرين جهنم^(٣). وسبقت آية الزمر بقوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} (الزمر ٧١) فاجابتهم هذه تتم عن إقرارهم بذنبهم وخطئهم.

ويتضح من سياق سورة غافر أن الأمر بدخول النار جاء في سياق محاورة الملائكة لهم وهم في النار بدليل قوله تعالى: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} (غافر ٧١ - ٧٢)، والأمر نفسه ينطبق على إجابة الكفار في آية غافر {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ} (غافر ٧٣ - ٧٤).

ومما سبق يتضح أن المثوى أطلق على مقام الكفار في النار، فهي ذات إقامة لهم يخلدون فيها؛ لأنهم أهل للإقامة والخلود فيها^(٤)، وهذا يقتضي الثبات والاستقرار والديمومة إذن لا مجال لهم لمغادرتها. أما قوله تعالى: {فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} (٢٤ فصلت) فبين أن النار ستكون محل ثواء، إقامة أبدية لأعداء الله كما وصفتهم الآية {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} (فصلت ١٩) من السورة نفسها بحيث لا براح لهم منها^(٥) ومع أن الآية تتحدث عن أمر مستقبلي غيبي لم يحدث بعد، إلا أنها عبرت بالصيغة الدالة على الثبات

(١) الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر (٤١٢ هـ - ١٠٢١ م)؛ البرهان في متشابه القرآن. تحقيق: أحمد عز الدين عبد الله خلف

الله، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ص ٢٤٣.

(٢) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٢٤ - ٤٢٥.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ١٤.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، (ثوي).

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٥، ص ٤٣.

والاستقرار في قوله " فالنار مثوى لهم" للدلالة على تحقق هذا الأمر وحصوله لا محالة، لذا سواء عليهم صبروا أو لم يصبروا في النار لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها"^(١) وبذا يكون قوله تعالى " فالنار مثوى لهم" دليل جواب الشرط لأن كون النار مثوى لهم ليس مسبباً على حصول صبرهم^(٢)، وإن علموا ذلك وعرفوا مصيرهم فليس لهم إلا الصبر على ما هم فيه.

كما أن قوله تعالى السابق لا يخلو من التهكم بهم فعندما يسمعون الصبر يستبشرون خيراً بأن الفرج سيأتي بعده، ثم تأتي خيبة الأمل والإحساس بالمرارة والألم أكثر عندما تكون الإجابة: " فالنار مثوى لهم" أي مكان إقامتهم ومكوئهم الطويل، لذا جاء القيد(لهم) للإيحاء بأن النار كأنها أعدت من أجلهم، مما يوحي بشدة العذاب الذي ينتظرهم؛ لذا إن سألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم^(٣)، وهذا كقوله تعالى: { قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } (المؤمنون ١٠٦ - ١٠٧) وطلبهم هذا يكشف عن مقدار جزعهم مما هم فيه^(٤) الآن من العذاب والمعاناة، وبما أنه جاء بعد فوات الأوان فلا قيمة له.

ومما يدل على سوء حالهم يوم القيامة مجيء أجوبة الشرط بالجمل الاسمية (فالنار مثوى لهم- فما هم من المعتبين) لتئيئسهم من النجاة الآن، بعدما كان ذلك متاحاً لهم في الدنيا، فهم بمحض إرادتهم رفضوا الإيمان؛ لذا جنوا حصيلة ما غرسوا في الدنيا.

وراهت الآية بين الجمل الفعلية (يصبروا- يستعذبوا) والجمل الاسمية (فالنار- فما هم) لتصوير حقيقة حالهم، فالدنيا دار عمل لذا جاءت الأفعال الدالة على الحدث وتجده، والآخرة دار جزاء وثواب؛ لذا جاء التعبير عنه بالجمل الاسمية للدلالة على الاستقرار والثبات فلا عمل اليوم، وهذا يؤكد سوء حالهم الآن.

كما أن الالتفات في الآية السابقة - الحديث عنهم بصيغة الغائب في سياق الحضور، وعدم توجيه الخطاب لهم مباشرة على الرغم من حضورهم - جاء " للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم، ويحكي سوء حالهم لغيرهم، أو للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب، وإقائهم في غابة دركات النار"^(٥) لعل غيرهم ممن يعرف مصيرهم هذا يتعظ قبل فوات الأوان.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ١٢٤.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٢٤، ص ٢٧٣.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ١٢٤.

(٤) الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه. ط ٥، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، سورية، ١٩٩٦، ج ٨، ص ٥٤٥.

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٥، ص ٤٣.

وبما أن غرض القرآن الكريم الإقناع والهداية؛ لذا يمزج بين الترغيب والترهيب كما في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} (محمد ١٢).

اتكأت الآية على المقابلة لإبراز البون الشاسع بين حال المؤمن والكافر ومصير كل منهما، وجاء التوكيد في بدايتها للدلالة على تحقق دخول المؤمنين الجنة، وتنعمهم بنعيمها بفضل من الله ورحمته بهم، فهم قضوا حياتهم الدنيا في الإيمان والعمل الصالح، بينما قضى غيرهم حياته في التمتع بملذات الدنيا المادية شأنهم في هذا المجال شأن الأنعام، لذا كانت العاقبة متناسبة مع جنس العمل، وشتان بين من كانت عاقبته "جنت تجري من تحتها الأنهار" وبين من كان مصيره "النار مثنوى لهم" وبما أن من يدخل الجنة لا يخرج منها، لذا لم تصفها الآية بدار إقامة، فهذا أمر مفروغ منه؛ لذا لم يطلق عليها مثنوى، أما النار فوصفت بالمثنوى للدلالة على أنها موضع إقامتهم الدائمة طيلة مكوثهم فيها، وجاء جمع جنات في مقابل أفراد النار في الآية السابقة للدلالة على كثرة النعيم الذي ينتظر من يدخلها، ونكرت جنات للدلالة على التكاثر أيضاً، زيادة في إبراز مظاهر النعيم فيها، أما أفراد النار وتعريفها فللدلالة على أنها نار واحدة مخصوصة معروفة لديهم، وفي الوقت ذاته توحى بشدة العذاب فيها لذا لا حاجة لجمعها.

كما أن تشبيههم بالأنعام حطّ من شأنهم، فهذا التصوير الساخر يكتفي عن انتفاعهم بمتاع الدنيا الزائل، وغفلتهم عن الآخرة، وعدم تفكيرهم في العاقبة كما تأكل الأنعام في مراعيها غافلة عما ينتظرها من الذبح^(١)، بل هم في هذا المجال أسوأ حالاً من الأنعام فهي إن غفلت عن مصيرها فلأنها لا تعقل، أما هم فيملكون العقل ومع ذلك عطلوه بمحض اختيارهم، لذا فالنار منزلهم ومحل إقامتهم في الآخرة.

ويلفتنا تكثير مثنوى في قوله "مثنوى لهم" ليفاد بالتثوين معنى التمكن من القرار في النار مثنوى، أي مثنوى قوياً لهم لأن الإخبار عن النار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتهم لها^(٢) أما قوله تعالى "النار مثواكم الأنعام، ١٢٨، فأضيفت النار إليهم لأنه يخبر عنها وهم يشاهدونها في المحشر^(٣).

وبما أن الكفار ظلموا أنفسهم؛ لأن الشرك أعلى مراتب الظلم للنفس جاء قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} (العنكبوت ٦٨) وقوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨ هـ / ١١٤٣م): الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط ١، مكتبة العبيكان، ١٩٩٨، ج ٥، ص ٥٢٠.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٩٠.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٢٧٣.

في جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} (الزمر ٣٢) ليبين أن عاقبة الافتراء على الله - بالزعم أن له شريكاً، والتكذيب بالحق - الإقامة الطويلة في العذاب؛ لذا خُتِمت الآيتان بالاستفهام التقريري، لأن "همزة الإنكار إذا دخلت على النفي صار إيجاباً فيرجع إلى معنى التقرير"^(١) وهذا أبلغ في الرد عليهم، وبيان سوء حالهم في الآخرة، لجرأتهم على الله - سبحانه وتعالى - بافتراءهم وتكذيبهم فقد ثبت لديهم أن جهنم مَثْوًى للكافرين، ومع ذلك فعلوا ما استوجب دخولهم فيها، والإقامة الطويلة فيها^(٢)، لذا لا عذر لهم اليوم. وجاء تقديم شبه الجملة في قوله: "في جهنم مَثْوًى للكافرين" لحصر مكان إقامتهم فيها، وصرّح بذكر وصفهم (للكافرين) من باب وضع الظاهر موضع المضمر والمراد وفي جهنم مَثْوَاهُمْ^(٣)، كما أن حرف الجر في "في جهنم مَثْوًى للكافرين" يفيد الملكية فكأنها أصبحت ملكاً لهم، إذن لا خروج لهم منها.

وبدأت الآيات بوصفهم بالظلم؛ لأنه لا أحد أظلم ممن جمع بين ظلم الافتراء على الله، والشرك والتكذيب على الله ورسوله، مع وضوح الشواهد وكثرة الدلائل على قدرة الله سبحانه وتعالى - فهم أخذوا بالباطل وردوا الحق^(٤)؛ لذا انتهت الآيات بوصفهم بالكفرة؛ لأن ظلمهم لأنفسهم أدى إلى سوء حالهم يوم القيامة، بعدما أتيحت لهم الفرصة في الدنيا للإيمان والعمل الصالح.

المَثْوَى في الدنيا:

وردت ثلاث آيات فقط تحدثت عن الثواء في الدنيا اثنتان منها في سورة يوسف، هما: قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (يوسف ٢١) وقوله تعالى: { وَرَاودَتْهُ الْتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (يوسف ٢٣)، والمراد بالمَثْوَى في قول العزيز "مكان إقامته وهو كناية عن الإحسان إليه في مأكل ومشرب وملبس"^(٥) وهذا الطلب يدل على تمكّن يوسف في قلب العزيز.

أما لم سَمَّى مكان الإقامة مَثْوًى؛ لأن حقيقة المَثْوَى المحل الذي يثوي إليه المرء (يرجع إليه)، والمراد هنا الكناية عن حال الإقامة عندهما (العزيز وامرأته)؛ لأن المرء يثوي إلى منزل

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٥، ص ٥٠٨ والدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج ٧، ص ٤٦٠.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٥٦٢.

(٣) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٧، ص ١٥٥.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٧٠ والغرناطي، أحمد بن إبراهيم: ملك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه

المتشابه اللفظ من آي التنزيل. تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ج ١، ص ٤٣٢.

(٥) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٢٥.

إقامته، وأراد العزيز أن يتخذ من الإحسان إلى يوسف وسيلة لإرضائه، ومن ثم جلب محبته لهما فينفعهما أو يتخذانه ولدا فيبرهما ويحسن إليهما^(١) وتحقق ما توسمه العزيز من خير في يوسف - عليه السلام - عندما رفض الاستجابة إلى طلب امرأة العزيز بقوله: "معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي" والأصح في الضمير كما يقول أبو حيان: "أن يعود على الله تعالى، أي أن الله ربي أحسن مثواي إذ نجاني من الحب، وأقامني في أحسن مقام، إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه، ولا بمعنى السيد، لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكاً له"^(٢) ويمكننا مخالفة أبي حيان في أن يوسف - عليه السلام - لم يكن مملوكاً للعزيز، فهذا الأمر ينفيه قوله تعالى: "وقال الذي اشتراه" فشراء يوسف - عليه السلام - يدل على أنه مملوك له، حتى وإن أحسن معاملته، ولم ينظر إليه نظرة المالك لعبده، لكن حسن الرعاية لا ينفي ملكيته له، وربما لهذا السبب لم يكن يوسف - عليه السلام - يقول له ربي بمعنى سيدي، ومهما كان الأمر فإن قول يوسف - عليه السلام - "أحسن مثواي" يدل على الإقامة مع الاستقرار^(٣)، وهذا لا يكون إلا مع الرضى والطمأنينة؛ لذا يقال: فلان أكرم مثواي، وهو أبو مثواي لمن أنت نازل به، وعلى هذا المعنى جاء قول الشاعر:

أفي كل يوم أمّ مثوى تسوسني تنفض أثوابي وتسالني ما اسمي
ويقال أيضاً: أنزلني فلان فأثواني إثواء حسناً، قال الشاعر:
أثوى فأحسن في الثواء وقضيت حاجاتنا من عند أروع ماجد^(٤)

ومن الدلالات اللغوية للمثوى كما يقول الزمخشري "ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل وامرأة، يراد هل تطيب نفسك بثوائك عنده، وهل يراعي حق نزولك به"^(٥) لذا عدّ يوسف - عليه السلام - استجابته لامرأة العزيز جحوداً بنعم الله عليه، وإساءة أدب مع العزيز الذي أحسن إليه، ولم يعامله معاملة السيد لعبده وخيانة له، لذا جاء التذليل في قوله: "إنه لا يفلح الظالمون" ليعبر عن هذا المعنى فالظالمون هنا بمعنى "الذين يجازون الحسن بالسيء"^(٦) إذن مراده بـ "بأحسن مثواي" تولاني في طول مقامي"^(٧).

(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٦٦ وابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٢٤٦.

(٢) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٢٥.

(٣) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٦، ص ١٢.

(٤) الزمخشري، أساس البلاغة، (ثوي).

(٥) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٦٦.

(٦) السابق، ج ٣، ص ٢٦٧.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، (ثوي).

وجاء المثنوى في قوله تعالى: {وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ} وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} (القصص ٤٥) ؛ للدلالة على الإقامة في المكان، وبهذا المعنى جاء قول الأعشى^(١):
* لقد كان في حول ثواء ثويته *

ويتضح أن الثواء يقتضي الإقامة والاستقرار وهذا لا يحدث إلا بطول الإقامة؛^(٢) لذا جاء النفي في الآية ليبرهن على نبوة محمد - عليه السلام - لأنها جاءت في سياق الإخبار عن أحداث حدثت في الماضي البعيد، حيث لم يكن - عليه السلام - موجوداً، كما أن أمية تنفي عنه قراءة ذلك في كتب السابقين فهو أمي في بيئة أمية^(٣)، فكيف تسنى له - عليه السلام - معرفة ذلك؟ كما أن تلك الأخبار تقتضي الإقامة الطويلة في ذلك المكان لمعرفتها، لذا جاء التذييل: "ولكننا كنا مرسلين" بإسناد الحدث إلى الله سبحانه وتعالى - لإظهار أن كل ذلك وحي من الله.

أما المثنوى في قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} (محمد ١٩) فالمراد به في هذا السياق المآل والمرجع فالله يعلم أحوال الناس جميعاً، وقدّر لهم جزاءهم على ما فعلوه في حياتهم^(٤)، ومثله حقيق بأن يُخشى ويتقى وأن يُستغفر ويسترحم، وهو لا يأمرهم إلا بما هو خير لهم في الدارين الدنيا والآخرة؛ لذا عليهم المسارعة إلى الامتثال بما طلب^(٥). ويمكن القول إن المراد بالمتقلب هنا تقلب الناس في البلاد، وتقلبهم وفق أحوال الحياة، وأن المثنوى مقابل ذلك هو الاستقرار والإقامة، فالله يعلم أحوال الناس جميعاً بين الحل والترحال والإقامة، وبذا يكون المثنوى في الآية السابقة قد جمع بين الدالتين الدنيوية والأخروية .

ومما سبق يتضح أن المثنوى أطلق على المنزل، لأن مداومة التردد عليه تقتضي طول الإقامة فيه وملازمته، وبهذا المعنى جاء المثنوى في كتاب الرسول - عليه السلام - لأهل نجران "وعلى

(١) الأعشى، ديوان الأعشى، شرح وتعليق: محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت، ص ١١٣ .

(٢) أبو حيان الأندلسي، البحر المحیط، ج ٣، ص ٨٣. والصابوني، صفوة التفاسير، ج ١١ ص ٣٩ .

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥١٩.

(٤) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ١٠٦ .

(٥) الزمخشري، الكشاف، ج ٥، ص ٥٢٤ والنسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (١٨٠هـ | ١٣١٠م): تفسير النسفي. دار

الكتاب العربي، بيروت، ج ٤، ص ١٥٣.

نجران مَثْوِي رُسُلِي" أي مسكنهم مدة مقامهم ونزلهم، والسكن والنزل يقتضيان الإقامة مع الاستقرار^(١).

ومما يدل أيضاً على أن المَثْوَى يقتضي الإقامة تسمية رمح النبي - عليه السلام - المَثْوِي، لأنه يُثَبِّت المطعون به، من الثَّوَاء بمعنى الإقامة^(٢).

كما أن المَثْوَى يتضمن معنى الترحيب وحسن الاستقبال، فالثَوِي: البيت المهيأ للضيف، ويقال: أنا ثَوِي فلان بمعنى ضيفه، ويقال أيضاً: أنزلني فلان فأتواني إثواء حسناً وعلى هذا جاء قول الشاعر:

أَثْوَى فَأَحْسَنَ فِي الثَّوَاءِ وَقَضَيْتُ حَاجَاتِنَا مِنْ عِنْدِ أَرْوَاحِ مَا جَدَ

ويطلق المَثْوَى على الغريب إذا لزم بلدة فيقال له ثاويها^(٣). وهذه المعاني للمَثْوَى انطبقت على إقامة يوسف - عليه السلام - في مصر، لذا وردت المَثْوَى في موضعين في قصته، كما أن بعضها ينطبق على (ثاؤ) التي وردت في سورة القصص.

المأوى في القرآن:

ورد الإيواء في القرآن الكريم في ستة وثلاثين موضعاً، منها: ثلاثة عشر موضعاً في أغراض دنيوية، وفي موضع واحد في أحوال الآخرة، ومآل الناس فيها، وفي تسعة عشر موضعاً في سياق العذاب، وفي ثلاثة مواضع في سياق النعيم*.

ومن الدلالات اللغوية للمأوى: هو "كل مكان يأوي إليه شيء ليلاً أو نهاراً" وأوى بمعنى لجأ، ويقال: آوى فلاناً: أسكنه وأنزله؛ لذا يطلق المأوى على المنزل أيضاً^(٤).

وفي الدعاء: ((اللهم آوني إلى ظل كرمك وعفوك))^(٥) و((الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم من لا كافي له ولا مؤوي))^(٦) والمراد ردنا إلى مأوى، ولم يجعلنا منتشرين كالبهائم^(٧)، وتأتي بمعنى رجع كما في قوله عليه السلام: ((أما أحدهم فأوى إلى الله))^(٨).

(١) ابن منظور، لسان العرب، (ثوي) والراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٣هـ / ١١٠٩م): معجم مفردات ألفاظ القرآن، ضبط

وتصحیح: إبراهيم شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧. ص ٩٥. وابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد

(٦٠٦هـ - ١٢١٠م): النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية، (ثوى).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (ثوي). وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (ثوى).

(٣) الزمخشري، أساس البلاغة، (ثوي).

* ينظر جدول رقم (٥).

(٤) ابن منظور، لسان العرب، (أوى).

(٥) الزمخشري، أساس البلاغة، (أوى).

(٦) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (٢٦١ هـ - ٨٧٥ م): صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م، ٩م، ص ٣٧.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، (أوى).

(٨) البخاري، محمد بن محمد بن اسماعيل (٢٥٦ هـ - ٨٦٩م): صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، ١٣١٣هـ، ج ١، ص ٣٦.

المأوى في الآخرة:

أطلق المأوى على بيان مآل المؤمنين وغيرهم في الآخرة في اثنين وعشرين موضعاً، ثلاثة منها في وصف الجنة، وتسعة عشر موضعاً في وصف النار وجهنم والجحيم*.

ففي قوله تعالى: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (السجدة ١٩)}

وعد الله- سبحانه وتعالى- الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنت المأوى" التي فيها المساكن والدور والغرف العالية"^(١) ليستمتعوا بما فيها من نعيم، وجاءت "نزلاً" حال عن جنت المأوى، أي حالة كونها مهياة ومعدة لهم، كما تهياً التحف للضيف، وذلك بسبب ما قدموه من صالح الأعمال^(٢)؛ لذا جاء تقديم الجار والمجرور (فلهم) لبيان كأنها أعدت من أجلهم وحدهم، واللام تفيد الملكية وكأنها بهذا أصبحت ملكاً لهم، وبهذا إشعار بعلو شأنهم عند الله- سبحانه وتعالى- وإبراز لمظاهر التكريم والحفاوة التي سينعمون بها، وبما أن الوعد صادر عن الله- سبحانه وتعالى- فإنه لا محالة متحقق. ويستوقفنا تعبير الآية بالفعل الماضي عن حدث يدل على التجدد في قوله (آمَنُوا وَعَمِلُوا) فالإيمان والعمل لا يتوقفان لأن دخول الجنة يقتضي المواظبة على الأفعال، ولعل مرد ذلك للدلالة على تحقق وقوع الفعل، فالإيمان والعمل الصالح لا بد منهما لدخول الجنة، كما أن ترتيب الآية يكشف عن أن الإيمان يسبق العمل، فالنية هي أساس قبول أي عمل.

وكما أبانت الآية عن تحقق الإيمان والعمل الصالح فيمن سيدخل الجنة، عبّرت بالجملة الاسمية (فلهم جنات) عن الأجر والثواب الذي ينتظرهم لدالاتها على الديمومة والثبات والاستقرار، وفي هذا طمأنينة لهم بأن الأجر قد تحقق، وبأن دخول الجنة لا خروج فيه، بدليل اللام الدالة على الملكية في (فلهم جنات) وتقديم الجار والمجرور، وهذا يعني أن التمتع بنعيم الجنة دائم لا ينقطع، وجاءت صيغة الجمع (جنات) للدلالة على كثرة النعيم الذي سينعمون به، إذن تضافرت الجملتان الفعلية والاسمية لإبراز هذا المعنى وتقريره في الأذهان، وأضيفت جنات إلى المأوى من باب التعظيم لشأنها.

ولئن صورت الآية السابقة أجواء النعيم والطمأنينة التي سينعم بها أهل الجنة، فإن الصورة المقابلة لها جاءت في قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} (السجدة ٢٠)، لإبراز قدرة الخالق-

* ينظر جدول رقم (٥)

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٦١٠.

(٢) الصابوني، صفوة التفاسير، ج١٢، ص ٤٠ والدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٧، ص ٥٨٢.

سبحانه وتعالى - وعدالته في إعطاء كل ذي حق حقه، وهذا ما أبان عنه قوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ۚ لَا يَسْتَوُونَ} (السجدة ١٨).

ويلفتنا في الآيتين السابقتين إطلاق المأوى على الجنة أولاً ثم إطلاقها على النار ثانياً، إذن الجنة مأوى والنار مأوى على اعتبار أنهما مكانان للإيواء وشتان بين الإيوئين، فإيواء الجنة جاء متوافقاً ومنسجماً مع الدلالات اللغوية للمأوى، أما إيواء النار فيتضاد مع الدلالة اللغوية؛ لأن الإيواء عندما يطلق يتبادر إلى الذهن دلالات الحماية والأمن والراحة ... الخ، وإذا بخيبة الأمل والخسران المبين عندما تتحول هذه الدلالات إلى نقيضها في العذاب في النار؛ لذا فصلت الآية في مشهد محاولة الكفار الخروج من النار - ولكن لا سبيل إلى ذلك - وهذا كناية عن شدة ما هم فيه من العذاب المادي ثم العذاب المعنوي المتمثل في قول "ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون" يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً^(١)، ولا يخلو هذا القول من إذلالهم وإهانتهم، لإشعارهم بعجزهم الآن بعدما أصبحوا لا حول ولا قوة لهم، مذكراً لهم بحالهم في الدنيا عندما تكبروا وفسقوا، لذا أطلق ابن أبي الإصبع على مثل هذا الأسلوب الشماتة وهو "إظهار المسرة بمن نالته محنة أو أصابته نكبة"^(٢) كما أن صيغة التضعيف "تكذبون" تدل على شدة إعراضهم في الدنيا عن الحق، لذا استحقوا ما هم فيه الآن.

وجاء التركيب "كنتم به تكذبون" ليدل على استغراقهم في التكذيب في الماضي (كنتم) واستمرار حالة التكذيب (تكذبون) حتى أدت بهم إلى النار. كما أن الفاء في قوله "وأما الذين فسقوا فمأواهم النار" فهي واقعة في جواب الشرط مما يعني أن دخول النار جاء جزاء لهم على فسقهم، وبما أن الفسق تحقق فيهم بدلالة التعبير بالفعل الماضي (فسقوا) تحققت كذلك نتيجته الإيواء في النار.

وأضيفت الجنة إلى المأوى في قوله تعالى: {عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} (النجم ١٥)، في سياق الحديث عما رآه الرسول - عليه السلام - في معجزة الإسراء والمعراج من مظاهر التكريم التي لم تنتسر لغيره - عليه السلام - من قبله ولا بعده، بدليل أنه - عليه السلام - وصل إلى جنة المأوى وهي الجنة التي يأوي إليها المنقون أو أرواح الشهداء^(٣) مما يعني أنها من أعلى المراتب التي يمكن أن يصل إليها إنسان، فهي قرب سدرة المنتهى كما أبان عن ذلك قوله تعالى: {عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى} (١٤ النجم) وهي في السماء السابعة، كما يتضح من قوله عليه السلام: ((ثم صعد بي إلى السماء السابعة، ورفعت إلي سدرة المنتهى))^(٤) ومعنى هذا أن جنة المأوى أعلى الجنات مراتب بدليل من

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٦١٠.

(٢) مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٧، ج ٣، ص ٥٧.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ١، ص ١٠٠.

(٤) البخاري، صحيح بخاري، ج ٥، ص ٦٨.

يحلّ بها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن رؤية الرسول - عليه السلام - لها جاءت لتكون مظهراً من مظاهر التكريم له عليه السلام، ومن المتعارف عليه أن يقدّم المضيف لضيفه أفضل ما عنده .

أما الموضع الثالث الذي دلّ فيه المأوى على الجنة فهو قوله تعالى: {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} (النازعات ٤١) جاء هذا الوصف في مقابل قوله تعالى: {فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} (النازعات ٣٩) فقوله تعالى " وأما من خاف مقام ربه " ضد قوله " فأما من طغى " وقوله " ونهى النفس عن الهوى " ضد قوله " وأثر الحياة الدنيا " فكما دخل في ذينك الوصفين جميع القبائح دخل في هذين جميع الطاعات^(١) فتضافرت هنا المقابلة مع إيجاز القصر في إبراز المعنى وتقريره في الأذهان؛ لذا جاءت " فإن الجنة هي المأوى " في مقابل " فإن الجحيم هي المأوى " فكما كانت المقابلة في الأعمال جاءت المقابلة في الجزاء وبالصيغة نفسها، أي لا مأوى للمؤمن إلا الجنة، وكذا الكافر لا مأوى له إلا النار .

ويلفتنا كثرة المؤكّدات في الآيتين السابقتين، والمراد بهما على التوالي فإن الجنة منقلب المؤمن ومصيره ومرجعه، وفي الوقت ذاته فإن الجحيم مصير الكافر، ومطعمه من الزقوم، ومشرّبه من الحميم^(٢) .

كما أن الآيات عبرت بالجمال الفعلية عن أفعال الناس (المؤمن والكافر) لدلالاتها على التجدد، أما جملة الجزاء المكافئة للعمل فجاءت بالجمال الاسمية لدلالاته على الثبات والاستقرار، كما اتضح فيما مضى، وهذه سمة أسلوبية في الآيات التي تحدثت عن مصير الناس إلى جنة أو نار .

وعند تدقيق النظر في الآيات السابقة يتضح أن التهريب سبق الترغيب، وهذا أنسب لأجواء النازعات فالسورة بدأت بطابع التهديد والوعيد والشدة؛ لذا ناسب البدء بالتهريب ثم تلاه الترغيب .

ويلفتنا في سياق التهريب قوله تعالى: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى} (النازعات ٣٦) التعبير بالفعل الماضي (برزت) عن أمر مستقبلي لم يحدث بعد للدلالة على تحقق الحدث^(٣)، وفي الوقت ذاته يدل على استعداد النار من الآن لاستقبال من سيدخلها قبل وقوع يوم القيامة، ولعل في هذا التصوير رادعا للنفس البشرية قبل فوات الأوان، كما أنه يوحي بقرب يوم القيامة، ولو نظرنا في الدلالة اللغوية لبرزت لوجدنا أنها تدل على المكان الفضاء من الأرض، وظهر بعد الخفاء، والظهور

(١) الفخر الرازي، محمد بن ضياء الدين عمر (٦٠٤هـ - ١٢٠٧م): تفسير الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١، ج ٣١، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٦٤٠ .

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٥، ص ٤٧٤ .

والخروج كما في قوله تعالى " وترى الأرض بارزة " أي ظاهرة بلا جبل ولا تلّ ولا رمل^(١)، وكل هذه الدلالات يحتملها قوله تعالى (وبرزت) وكأن المتلقي يراها كأنها ماثلة أمامه .

كما أن بناء الفعل للمجهول (وبرزت) دليل على إعجاز القرآن وسامي بيانه، فالله - عز وجل - هو الفاعل وحده لهذا الحدث لا أحد غيره ، وقد أخفي لشدة ظهوره ومعرفته .

ومما سبق يتضح أنّ الحديث عن جنات المأوى في آية السجدة تلاه مباشرة الحديث عن النار مأوى الفاسقين، أما في سورة النازعات فقد سبق الحديث عن الجحيم (هي المأوى) الحديث عن الجنة (هي المأوى)، أما سورة النجم فقد انفردت بذكر جنة المأوى دون الحديث عن مقابلها المأوى في النار؛ ولعل هذا يعود لأن جنة المأوى جاءت في سياق الحديث عما رآه الرسول - عليه السلام - من تكريم وحفاوة في حادثة الإسراء والمعراج، كما أن سورة النجم خلت من ذكر النار حتى في الآيات التي تحدثت عن إهلاك الله - سبحانه وتعالى - للأقوام الكافرة .

أما الآيات التي تحدثت عن المأوى في سياق العذاب فتتقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم وُصفت به النار بالمأوى، وقسم وُصفت به جهنم بالمأوى، وآية واحدة وُصفت بها الجحيم بالمأوى^(*).

ومن الفئات التي سيكون مأواها النار هم الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم كما اتضح من قوله تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) (المائدة ٧٢)، وافتتحت الآية بالتوكيد (لقد كفر) لتحقيق الكفر فيمن قال ذلك، لأنه اتخذ مع الله شريكاً؛ ولأنه بقوله هذا نقض ما أعلنه عيسى - عليه السلام - بأن الله هو ربه كما صرحت هذه الآية وغيرها من الآيات؛ لذا من قال عكس ذلك حرّم الله - سبحانه وتعالى - عليه الجنة، لذا جاء التصريح بلفظ الجلالة (الله) للإشعار بشدة غضب الله عليه، كما أن صيغة التضعيف في حرّم تدل على ذلك، ومع أن من حرّم الله عليه الجنة لن يدخلها، فإن التصريح به زيادة في التوكيد، وبذا تضافرت الجملة الفعلية المؤكدة " فقد حرّم " والجملة الاسمية الدالة على التوكيد أيضاً " ومأواه النار " للدلالة على عظم الذنب الذي اقترفه، لذا جاءت العقوبة متناسبة مع شدة الذنب، وجاءت صيغة الماضي المؤكد بـ (لقد) وبالتضعيف للدلالة على تحقق هذا الأمر فيمن قال ذلك، ثم أتبعها بقوله " ومأواه النار " بالجملة الاسمية زيادة في التوكيد، وإمعاناً في التغليظ على من قال ذلك، وتحذيره من عاقبة قوله هذا؛ لذا تتالت المؤكدات في الآية السابقة لتقرير هذا الأمر وترسيخه في الأذهان فمن

(١) ابن منظور، لسان العرب، (برز).

(*) ينظر جدول رقم (٥).

يقول ذلك لا يلومن إلا نفسه، لاحظ قد والفعل الماضي، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار، لتحويل الأمر وتربية المهابة^(١)، والتعبير عن الأمر المستقبلي بالفعل الماضي، واسمى الجملة، وتعريف النار للدلالة على أنها "هي المعدة للمشركين، وهذا بيان لابتنائهم بالعذاب، إثر بيان حرمانهم الثواب"^(٢) ولعل هذا هو سر تدرج الآية في ذكر العقوبة المترتبة على اتخاذ شريك مع الله.

وجاء التذليل "وما للظالمين من أنصار" ليقرر ما قبله، وتحتل هذه الجملة أن تكون من كلام الله - سبحانه وتعالى- من باب التأكيد لمقالة عيسى عليه السلام- والتقريب لمضمونها^(٣) وبذا يتضمن قوله تعالى تبرئة لعيسى- عليه السلام- مما قالته بعض فرق النصارى؛ ولذا لا يستغرب وصف الآية لمن قال مثل ذلك بالكفار في مفتتحها ثم ختمت بوصفهم بالظالمين فهم ظلموا أنفسهم عندما قالوا ما قالوا؛ لذا جاء التعبير باسم الفاعل (ظالم) للدلالة على تحقق هذا الأمر فيهم، ومعنى ذلك أنهم اختاروا بمحض إرادتهم دخول النار، وهذا هو الظلم بعينه.

ويتضح من الآية السابقة أن من يتخذ مع الله شريكا (المسيح) سيكون مأواه النار، وكذلك سيكون المأوى نفسه بانتظار من يتخذ الأصنام آلهة دون الله كما أبان عن ذلك قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (العنكبوت ٢٥).

والآية تخبر عن كفر قوم إبراهيم- عليه السلام- لذا جاء قوله تعالى السابق تقرعاً لهم وتوبيخاً على اتخاذهم الأوثان آلهة هذا في الدنيا، أما في الآخرة فيكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً؛ لذا سيكون مصيرهم ومرجعهم إلى النار^(٤)، وجاء التعبير بالجمال الاسمى المتتابعة "ومأواكم النار وما لكم من ناصرين" لدلالاتها على الثبات والاستمرار والديمومة في ذكر جزائهم، وتئيسهم من النجاة من عذابها، أو الخروج منها، لأنه لا ناصر لهم يومذاك.

وجاء قوله تعالى: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (الجنات ٣٤) في سياق الحديث عن مشهد غيبي مما سيحدث مستقبلاً في النار عندما يقال للكفار: "اليوم نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم، كما نسيتم لقاء يومكم هذا، فلم تعملوا له، لأنكم لم تصدقوا به"^(٥) وإرادة المعنى الحقيقي للنسيان لا تمنع من إرادة المعنى المجازي أيضاً، فهو

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٢، ص ٩٩.

(٢) السابق، ج ٢، ص ١٠٠.

(٣) السابق، الصفحة نفسها.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥٤٢-٥٤٣.

(٥) السابق، ج ٤، ص ١٩٥.

سبب الترك، وإذا نسي الشيء فقد تركه^(١) ويحتمل أن يكون النسيان استعارة تمثيلية "مثل تركهم في العذاب بمن حُبس في مكان ثم نسيه السجان من الطعام والشراب حتى هلك"^(٢).

ومهما كان المراد بالنسيان فإنه يمثل مظهراً من مظاهر العذاب الذي ينتظر الكفار يوم القيامة، وكذلك يشعر بغضب الله عليهم، وختمت الآية بالجملة الاسمية "ومأواكم النار وما لكم من ناصرين" لدلالاتها على الثبات وديمومة مكوثهم في النار، وفي عدم وجود ناصر لهم، وفي هذا تينيس لهم من النجاة من عذابها، أو الخروج منها بعدما أتيحت لهم فرص النجاة في الدنيا، وكان ردهم غاية في الاستكبار والكفر، كما يتضح من قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ} (الجاثية ٣٢) فهم عندما كان يقال لهم: إن الساعة حق، قالوا ما ندري ما الساعة، وتمثل كفرهم في إنكارهم للبعث، ودلت كثرة المؤكدات في إجابتهم على شدة إعراضهم وهي: تكرارهم لـ (ما) والمصدر المؤكد لفعله (نظن ظناً) واسمية الجملة واسم الفاعل والقصر (إن وإلا)، ودلّ التعبير بصيغة الجمع على أن هذا الإنكار كان إنكاراً عاماً أو جماعياً فيهم، لذا ناسب شدة الإنكار شدة العذاب.

وكشف قوله تعالى: {أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (يونس ٨) عن فئة جديدة سيكون مأواها النار، ولا بد من السؤال من المراد باسم الإشارة (أولئك) وماذا فعلوا حتى استحقوا النار، ولمعرفة ذلك لا بد من النظر في الآية السابقة {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} (يونس ٧)، فهم لا يرجون لقاء الله، لذا رضوا بالحياة الدنيا وعملوا من أجلها، وغفلوا عن الآخرة، إذن هم فضّلوا المتاع الزائل على النعيم الدائم.

وراهت الآية بين الفعل المضارع (يرجون) والفعلين الماضيين (رضوا - اطمأنوا) للدلالة على استمرار عدم رجائهم لقاء الله، وتحقيق فيهم وتقرر انكابهم على الدنيا وحرصهم عليها، لذا لن يجدوا لهم مأوى في الآخرة إلا النار، وهذا ما أفادته الجملة الاسمية "أولئك مأواهم النار" كما أن اسم الإشارة (أولئك) دلّ على دنو منزلتهم عنده في يوم القيامة، وسبب ذلك "بما كانوا يكسبون" فالباء تدل على السببية وقوى الاسم الموصول (ما) هذا المعنى وأكده، وهو أن مكسوبهم السبب في مصيرهم إلى النار، كما أن (كان) في هذا السياق كشفت عن أن هذا المكسوب ديدنهم، لذا عبّر عنه بالفعل المضارع (يكسبون) لدلالته على التكرير^(٣).

(١) الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ٩، ص ١٦٣ .

(٢) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ١٥، ص ٧٨ .

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٩٨ .

أما قوله تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (النور ٥٧) جاء في سياق إبراز قدرة الله - سبحانه وتعالى - على إدخال الكفار النار، وتحذيرهم من استمرارهم

على ما هم فيه من كفر وعناد، مغترين بقوتهم المادية، وفي الوقت ذاته تضمن قوله تعالى السابق تسليية وسلوى للرسول - عليه السلام - وللمؤمنين وفي هذا تظمين له ولهم.

ودلت الجملة الاسمية (وماؤاهم النار) على ثبات هذا الأمر واستقراره فيهم، ومع أنه لم يحدث بعد إلا أنه سيكون هذا عند وقوعه، وهذا دليل على قدرة الله - سبحانه وتعالى - على تعذيبهم أشد العذاب^(١).

وجاء التنزيل "ولبئس المصير" ليبين بؤس حالهم في الآخرة وبؤس مأواهم، وشتان بين صورتهم هذه وصورتهم في الدنيا، وخشية أن يستبعد البعض أن يكون هذا شأنهم في الآخرة بعدما عاينوا حالهم في الدنيا؛ لذا تتالت المؤكدات في ختام الآية لإزالة أي شك، أو استبعاد أن يكون هذا مصيرهم.

وبين قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} مَاؤَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوَلاَكُمْ^ط وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (الحديد ١٥)، حال المنافقين وحال المشركين فالمصير واحد، وهو النار مأواهم لا يبرحونها؛ لأنها مكانهم الذي يقال لهم فيه: "هو أولى بكم، كما يقال هو مئنة الكرم، أي مكان لقول القائل إنه لكريم، أو مكانكم عن قريب، من الولي (القرب) أو ناصركم على طريقة قول الشاعر: تحية بينهم ضرب وجيع*

أو متوليكم تتولاكم كما توليتم موجباتها"^(٢) فهذه المعاني مجتمعة يحتملها قوله تعالى "هي مولاكم" ولا يخلو هذا القول من تهكم بهم، فالنار هي عونهم وسندهم وناصرهم حيث لا ناصر لهم غيرها^(٣). وهذا مظهر من مظاهر العذاب المعنوي الذي سيحل بهم أيضاً، ويكشف عن سوء حالهم يوم القيامة، لذا يأتي قوله "وبئس المصير" ليتم الظلال القائمة لصورتهم في الآخرة.

وتضمن قوله تعالى "فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا" تبييناً لهم من النجاة من النار، أو افتداء أنفسهم من عذابها لا منهم، ولا من الذين كانوا أولياءهم في الدنيا^(٤).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٤٠٤.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٥، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٣) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ١٧، ص ٨٠.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٠٤.

المأوى / جهنم:

أما القسم الثاني من الآيات التي بينت مآل غير المؤمنين في الآخرة، بوصف جهنم مأوى لهم، فقد بلغت عشر آيات^(*).

ففي قوله تعالى: {أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (آل عمران ١٦٢)، رسمت الآية صورتين متقابلتين لتقارن بين حال من اتبع رضوان الله وحال من خالفه وعاقبة كل منهما، وافتتحت الآية بالهمزة والفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المماثلة بينهما، والحكم بها على ما ذكر من حال الغال^(١) في الآية السابقة لها، وشتان بين الحالين: حال من يفوز برضوان الله، وحال من باء بسخطه، وغرض الآية تأكيد نفي الغلول عن النبي - عليه السلام - وتقريره بتحقيق المباينة الكلية بينه وبين من يغل^(٢)، وجاء الحديث عن الغلول ليكون نموذجاً على الأعمال التي تستحق غضب الله، لذا فجهنم هي المأوى .

وتضمنت الآية السابقة استعارة وصفها أبو حيان بالبديعة^(٣) جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً فنكص عن اتباعه ورجع بدونه^(٤).

وصرح بذكر لفظ الجلالة (الله) في "رضوان الله" وفي "سخط من الله" للدلالة على أنه الفاعل في كل منهما، وعرف الرضوان بإضافته إلى الله، ليشمل كل أنواع النعيم التي يمكن أن يتخيلها الإنسان، ونكر سخطه للتهويل بمعنى باء بسخط عظيم لا يكاد يُوصف^(٥) أو لا تعرف ماهيته من شدته، وبذا تضافر التعريف والتكثير معاً لإظهار قدرة الله - سبحانه وتعالى - في أبهى تجلياتها، فالقادر على التكريم هو نفسه القادر على التعذيب؛ وليترك للمتلقي فرصة للمقارنة بين الحالين، لعله يحسن الاختيار، ويتعظ قبل فوات الأوان.

كما أن كلمتي (رضوان وسخط) اشتملتا على كل أنواع الرضى وكل أنواع السخط، فإيجاز القصر فيهما أغنى عن ذكر كثير من التفاصيل، كما أن التضاد بينهما أبرز الفرق الشاسع بين مصير من يتبع رضوان الله، ومصير من باء بسخطه. وجاء الذم "وبئس المصير" من باب التذليل ليؤكد خسارة من باء بسخط الله، وسوء حاله يوم القيامة.

(*) ينظر جدول رقم (٥) .

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ١، ص ٥٩١.

(٢) السابق، ج ١، ص ٥٩٠.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٣، ص ١٠٧.

(٤) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٢، ص ٦٣.

ويلفتنا في الآية السابقة التفصيل في عاقبة من باء بسخط الله، وعدم حديثها عن عاقبة من اتبع رضوان الله، اعتماداً على قدرة المتلقي على معرفة ذلك استنتاجاً من السياق الذي يتيح للمتلقي أن يتدخل مباشرة بإحضار الغائب اعتماداً على ما ترك له في النص من إشارات، مما يتيح للحركة الذهنية للمتلقي ممارسة دورها بفاعلية، بينما الذكر يجعل حضوراً للمتلقي يمكن وصفه بالحضور السالب وليس الفاعل^(١)؛ ولهذا يمكن للمتلقي تخيل صورة النعيم التي سيتنعم بها من اتبع رضوان الله.

وسار على النمط نفسه قوله تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ} وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} (الإسراء ٩٧) إذ أوجزت الآية في الحديث عن هداه الله، وفصلت في مصير من ضلّ عن سبيله، فالمذكور يستدعي مقابله وهو صورة النعيم والرضى والطمأنينة التي سيتنعم بها من اهتدى، فالذكر هنا " يقلل من فاعلية المتلقي ودوره في التفاعل مع النص لأن اكتمال عناصر الصياغة يدخلها منطقة الشفافية التي يستطيع المتلقي اختراقها سريعاً إلى الناتج الدلالي، بينما يدخل الحذف البنية دائرة الكثافة بحيث لا يخرقها المتلقي إلا بعد معاناة، فيكون اكتساب المعنى شبيهاً باكتساب التصور، فيزداد الكلام حسناً وتزداد النفس لذة"^(٢).

ولعل هذا هو مراد محمد بن علي الجرجاني عندما بيّن أن الحذف " يدخل المحذوف إلى دائرة الإيهام، ويحصل للنفس ألم لجهلها به، وإذا التفتت إلى القرينة تفتنت له، فيحصل لها اللذة بالعلم به، واللذة الحاصلة بعد الألم أقوى من اللذة الحاصلة ابتداء"^(٣).

وصرحت الآية بلفظ الجلالة في " ومن يهد الله" وأضرته في " ومن يضل" لأن من دأب الخطاب القرآني نسبة الخير والفضل إلى الله - سبحانه وتعالى - ولا ينسب إليه الشر والأذى.

وتضمن قوله تعالى: " فهو المهتد " في جواب الشرط إيجاز القصر الذي شمل كل أنواع الهداية والخير، مما أغنى عن ذكر كثير من التفاصيل، كما أن الجملة الاسمية دلت على الثبات والاستقرار والديمومة، وتعريف الطرفين أكد هذا المعنى لدلالته على القصر.

وفصلت الآية في عاقبة الضالّ لاشتمالها على ثلاثة أنواع من العقوبات هي: لا ناصر له، ومأواه جهنم، وحشره على وجهه. وسئل الرسول - عليه السلام - كيف يُحشر الناس على وجوههم؟

(١) عبد المطلب، محمد، البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان، والشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٧، ص ٢١٧ - ٢٠٨.

(٢) السابق، ٢٢١ - ٢٢٢.

(٣) الجرجاني، محمد بن علي، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. تحقيق: عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ٣٣.

قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم^(١)، وفي هذا التصوير كناية عن سوء حالهم يوم القيامة، جاءت هذه الصورة لتترك للمتلقي تخيل صورتهم في الدنيا كيف كانت عندما أخذتهم العزة بالإثم، وحالت دون رؤيتهم للحق وسماعه واتباعه^(٢) فالجزاء يتناسب مع شدة الذنب.

وعبرت الآية بالجملة الاسمية "مأواهم جهنم" لبيان منقلبهم ومصيرهم، وبالجملة الفعلية "كلما خبت زنادهم سعيراً" للدلالة على استمرار تأجج النار واشتعالها، إذ كلما أوشكت على الانطفاء زنادهم سعيراً، وكان من المتوقع أن يقال: كلما خبت زنادها سعيراً، وإذا بالمفاجأة "زنادهم سعيراً" وعودة الضمير عليهم توحى بشدة العذاب فهم وقود النار "كلما سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم، ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار، وتحرقه زنادهم توقداً، بأن بدلناهم جلوداً غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة"^(٣) ومعنى هذا تجدد العذاب وعدم توقفه، ولا يقوى على مثل هذا الأمر إلا الله- سبحانه وتعالى- لذا أسند الحدث إلى (نا) الدالة على التعظيم والتفخيم، وفي هذا الوصف تئيس لهم من انطفاء النار، أو تخفيف العذاب، إذ ربما شعروا عندما تخبر النار بأن الفرج "بات قريباً، وإذا بالعذاب يتجدد ثانية، لذا جاءت "سعير" على وزن فعيل لتدل على ثبات التأجج والاشتعال واستمراره على وتيرة واحدة.

ومع أن الآية تصف مشهداً غيبياً مما سيحدث في يوم القيامة إلا أنها عبرت عن الحدث بالفعلين الماضيين (خبت - زناداً) للدلالة على تحقق وقوع الحدث، فكأنه حدث وتم. كما أن الالتفات في الآية من الغيبة إلى التكلم يدل على احتقارهم فهم لا يستحقون أن يوجه إليهم الكلام؛ لأنه لا أهمية لهم عند الله؛ لذا تحدثت عنهم الآية بصيغة الغائب^(٤)، بعدما فقدوا بريق الدنيا الزائف.

وفي قوله تعالى: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۖ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} (الرعد ١٨)، أوجز في بيان مآل المؤمنين الذين يستجيبون لربهم وأطنب في بيان مآل غيرهم، وعبرت الآية بالفعل الماضي عن رد فعل المؤمنين (استجابوا) للدلالة على تحقق هذا الأمر فيهم، وعبرت بالفعل المضارع (لم يستجيبوا) عن رد فعل غيرهم، ربما لفتح باب التوبة أمامهم أملاً في استجابتهم لاحقاً، قبل فوات الأوان.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٩٠.

(٢) السابق، ج ٣، ص ٩١.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٣، ص ٤٨٥.

(٤) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٧، ص ٧٩.

وصرحت الآية بذكر لفظ الجلالة (ربهم) في سياق الحديث عن المؤمنين وفي هذا نوع من التكريم لهم والحفاوة لهم، أما غيرهم فاكتفى بالضمير (له) ولم يذكر لفظ الجلالة صراحة، للدلالة على عدم اعترافهم بربوبية الله، ولو كانوا يعترفون لما وقفوا هذا الموقف، ولما كانت جهنم مأواهم، وهذا مظهر من مظاهر الدقة في التعبير القرآني.

كما أن التعبير باللام الدالة على الملكية في "للذين استجابوا" ما يوحي بأن الجزاء الحسن بات في يدهم جزاء لهم على حسن فعلهم، وكأنهم باتوا يملكون رضى الله عنهم بفعلهم هذا؛ لذا أوجزت كلمة واحدة فقط (الحسن) ما ينتظرهم من جزيل الأجر والثواب، فهي تشمل كل أنواع الخير والنعيم الذي يمكن تخيله، ويمكن القول إن المراد بها هنا الجنة؛ لأنها جاءت في مقابل جهنم^(١) في قوله تعالى: "ومأواهم جهنم" جزاء الذين لم يستجيبوا لربهم.

وبعد أن أوجزت الآية في عاقبة المؤمنين شرعت في بيان ما أعدّ لغيرهم من عذاب، تمثل في تئيسهم من النجاة منه في يوم القيامة فملء الأرض ذهباً لن يمكنهم من افتداء أنفسهم من العذاب، ليس هذا فحسب بل سيقاشون على كل صغيرة وكبيرة قاموا بها، ومن نوقش الحساب عُدب^(٢)؛ لذا جاء التعبير بالجملة الاسمية "أولئك لهم سوء الحساب" للدلالة على ثبات هذا الأمر وتحققه فيهم، وجاء الجار والمجرور (لهم) للإشعار بأن مثل هذا العذاب أعدّ خصيصاً من أجلهم؛ لذا فمرجعهم جهنم، وجاء التذييل "وبئس المهاد" للإيحاء بشدة العذاب الذي ينتظرهم، وذلك بتشبيه جهنم بالمهاد لهم، وأصل المهاد المكان الممهّد الموطأ للنوم والراحة^(٣)، وإذا به الآن يتحول إلى مكان عذابهم، فيأتيهم العذاب من حيث ظنوا أن فيه الراحة والنوم، وإذا كان فراشهم من نار فكيف يمكن لهم أن يشعروا بالراحة، إذن جاءت الآية لتذم المستقر والفراش الممهّد لهم في النار^(٤)، وليس المراد ذم جهنم، وما كان أغناهم عن مثل هذا المصير لو استجابوا لربهم كما فعل المؤمنون!

ويكشف قوله تعالى: {وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (الأنفال ١٦) عن مصير المؤمن الذي يتولى يوم الزحف بلا عذر مقبول، ويتمثل مصيره في غضب الله عليه، ومأواه جهنم، جاء التعبير بالفعل الماضي المؤكد "فقد باء بغضب" عن أمر مستقبلي لم يحدث بعد، للدلالة على تحقق حلول غضب الله على الذي يتولى يوم الزحف، ونُكرت كلمة (غضب) لتحويل ما ينتظره من العذاب، ولما كان

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٣، ص ٢٠٦.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٦٧٠.

(٣) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٦، ص ٤٥.

(٤) السابق، الصفحة نفسها.

هذا محل توقع السامع للجواب وتفريغ ذهنه له، أجاب رابطاً بالفاء إعلالاً بأن الفعل الحدث عنه سبب لهذا الجزاء^(١).

ولخصّ قوله تعالى: "ومأواه جهنم" كل أنواع العذاب التي يمكن أن تحلّ بالفارّ من الزحف، للإشعار بخطورة هذا الفعل، والتنفير منه، كما أن التعبير بالجملة الاسمية يدل على ثبات هذا المصير وتحققه واستقراره، فهو فرّ من الزحف من أجل أن يجد مأوى ينجيه من القتل في الدنيا؛ لذا يجد بدل هذا المأوى جهنم في الآخرة^(٢)، كل هذا الوعيد والتحذير المتتالي؛ لإبراز فداحة هذا الفعل؛ لذا عدّه عليه السلام من الكبائر، ومع ذلك لا يتورع أصحاب النفوس الضعيفة عن فعله.

وتضمّن قوله "ومن يولهم يومئذ دبره" تعريضاً بمن يرتكب هذه الكبيرة "فقد ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها، فأتي بلفظ الدبر دون الظهر"^(٣) لعل هذا التصوير الساخر يردع من يفكر بالفرار من ساحة المعركة.

وعبرت الآية عن فعل الشرط وهو التولي يوم الزحف بالفعل المضارع (يولهم) وبالفعل الماضي المؤكد (فقد باء) عن جواب الشرط، مع أن كلا الحدين أمر مستقبلي، للدلالة على أن مصير كل من يتولى يوم الزحف هو ثابت لا يتغير، أما التولي فقد يحدث وقد لا يحدث تبعاً لظروف المعركة، ومدى قوة النفس البشرية وقدرتها على التحمل؛ لذا لم يعبر عنه بالصيغة الدالة على الثبات.

وجاء الاحتراس بين فعل الشرط وجوابه "إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة" لبيان أن الفرار من المعركة لا يجوز شرعاً، إلا إذا اقتضته ضرورة كأن يكون من باب الخديعة للعدو، أو للانحياز إلى فئة أخرى من المسلمين تحتاج إلى معونته^(٤)، ولولا هذا لكان كل فرار مشمول بغضب الله.

ومن الذين استحقوا أن تكون جهنم مأوى لهم المسلم الذي يقيم بين المشركين، وتحول إقامته بينهم دون إقامة أمور دينه وهو قادر على الهجرة^(٥)، كما يتضح من قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} (النساء ٩٧) فهو لاء ظلموا أنفسهم باختيارهم مجاورة الكفار، على الرغم مما في ذلك من إخلال بأمور دينهم، وتركهم للهجرة المتاحة

(١) البقاعي، إبراهيم بن عمر (٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. مكتبة ابن تيمية، ج ٨، ص ٢٤١.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٢، ص ٤٧٦.

(٣) الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ٣، ص ٥٤٤.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٨٩-٣٩٠.

(٥) السابق، ج ١، ص ٧٢٠.

لهم^(١)؛ لذا جاء التعبير باسم الفاعل (ظالمي) للدلالة على تحقق هذا الأمر واستقراره فيهم، وبناء عليه سيكون مصيرهم "أولئك مأواهم جهنم" واسمية الجملة تدل على تحقق هذا الجزاء، وحلول العذاب بهم لا محالة، وحتى لا يظن ظان أن هناك فرصة لهم للنجاة من عذابها افتتحت الآية بالتوكيد "إن الذين توفاهم ..".

وسردت الآية مشهداً من الحوار الذي سيدور بينهم وبين ملك الموت عند الوفاة توبيخاً واستنكاراً لموقفهم هذا وتبكيته^(٢)؛ لذا يأتي ردهم ردّ المنكسر "كنا مستضعفين في الأرض" ولكن لا عذر لهم؛ لذا مصيرهم جهنم، كما أن قولهم هذا جاء بعد فوات الأوان، وهم على فراش الموت. وحذر الله - سبحانه وتعالى - من موالاة الشيطان في قوله: {أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} (النساء ١٢١)، ولمعرفة من المراد بأولئك لا بد من النظر فيما سبقها من الآيات {وَلَا ضَلَلْنَاهُمْ وَلَأَمْنِيْنَهُمْ وَلَأَمْرُنَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ أَذَانُ النَّعَامِ وَلَأَمْرُنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيْنَهُمْ ۖ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} (النساء ١١٩ - ١٢٠).

ودل اسم الإشارة (أولئك) على بعد منزلة أولياء الشيطان في الخسران؛ لأنهم اغتروا بما يعدهم به ويمنيهم^(٣)؛ لذا جاء أسلوب القصر "وما يعدهم الشيطان إلا غرورا" لتأكيد هذه الحقيقة وتقريرها. والشيطان كما كشف عن ذلك قوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْأَا أَنفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (إبراهيم ٢٢) يقرّ بهذه الحقيقة.

وبدأت آيات سورة النساء بفعلين يبعثان على الأمل والتفاؤل (يعدهم ويمنيهم) وانتهت بالخسران وخيبة الأمل (وما يعدهم إلا غرورا) وهذا هو شأن الشيطان يخدع ويغرّر ثم تتكشف الحقائق عن وهم خادع؛ لذا فالاغترار بالشيطان يؤدي إلى جهنم.

ومع أن الجملة الاسمية "ومأواهم جهنم" دلت على الثبات والديمومة بحيث أن مستقرهم جهنم إلا أنها أتبعَت بالجملة الفعلية "ولا يجدون عنها محيصا" ليقضي على أي أمل لهم بالنجاة من عذابها، فليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ولا خلاص^(٤).

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٧، ص ٧٦٦.

(٢) السابق، ج ١، ص ٧٦٦ - ٧٦٧ والدرويش، إعراب القرآن، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ١، ص ٧٨٤ - ٧٨٥.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٧٤٠.

وجمع قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ (التوبة ٧٣) وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ (التحریم ٩)، بين مصير الكفار والمنافقين فماوَاهم واحد، فالمنافق في حقيقته كافر بل هو أسوأ من الكفار، لأن الكافر أعلن كفره، أما المنافق فهو يعلن خلاف ما يبطن (الكفر)، لذا جاء الخطاب للرسول - عليه السلام - بمجاهدة الكفار المجاهدين بالسيف والمنافقين بالحجة وإقامة الحدود^(١) وأمره بالغلظة عليهم حتى لا تأخذه شفقة أو رحمة بهم، وإذا كان هذا هو شأنهم في الدنيا فمن العدل أن يكون عذابهم أشد في الآخرة؛ لذا جاء التعبير بالجملة الاسمية لتأكيد هذه الحقيقة.

وكشف قوله تعالى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ} فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّمَا رَجَسٌ وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (التوبة ٩٥) عن حقيقة المنافقين وكذبهم؛ لذا جاء التوكيد في "سحلفون بالله" تحقيرا لمعاذيرهم الكاذبة^(٢) حتى لا ينخدع بها المسلمون، وجاء الأمر صريحا بالإعراض عنهم احتقارا لهم فهم رجس^(٣)؛ لذا لا يجوز قبول أعدائهم حتى وإن رضي المسلمون عنهم لحلفهم بالله، فإله لا يرضى عنهم؛ لأنهم خرجوا عن طاعته وطاعة رسوله^(٤)؛ لذا فمصير مثل هؤلاء "ماوَاهم جهنم".

ويحتمل قوله تعالى "ماوَاهم جهنم" أن يكون "من تمام التعليل فإن كونهم من أهل النار من دواعي الاجتناب عنهم، وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب، وإما تعليل مستقل أي وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا أنتم في ذلك"^(٥)، ومهما كان المراد بها فإنها تصف العقوبة التي تنتظرهم "جزاء بما كانوا يكسبون".

وتضمن قوله تعالى: {لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمِهَادُ} (آل عمران ١٩٦ - ١٩٧)، تنبيها وتطمينا للرسول - عليه السلام - بأن مصير الكفار النار حتى وإن تمتعوا بمتاع الدنيا، ولبيان أن الدنيا لا تساوي عند الله - سبحانه وتعالى - شيئا؛ لذا أباح لهم التمتع بها؛ لذا جاء النهي له - عليه السلام - بعدم النظر إلى ما عليه الكفرة من السعة ووفور الحظ^(٦)، فكله متاع قليل لا قيمة له بالقياس إلى ما ذكر من الثواب والنعيم الدائم في الآخرة، أما

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٢، ص ٥٧٨.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٢، ص ٥٩٢.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٤) السابق، الصفحة نفسها.

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٢، ص ٥٩٣.

(٦) السابق، ج ١، ص ٦٣٣.

المتاع الدنيوي فمصيره إلى زوال ثم سيعقبه العذاب الأكبر في الآخرة، وجاء التعقيب على ذلك "وبئس المهاد" "والمخصوص بالذم محذوف أي بئس ما مهدوا لأنفسهم جهنم"^(١) ويلفتنا أن الذم للمهاد وليس لجهنم، وفي هذا إشعار بشدة عذابهم وألمهم، فعندما يتحول المهاد وهو مظنة الراحة والأمن إلى أن يكون قطعة من جهنم، تصبح خيبة الأمل أكبر، والألم أشد .

ولئن كان النهي موجهًا في ظاهره إلى الرسول - عليه السلام - فهو يشمل أصحابه وأتباعه من الاغترار بما يرونه في الدنيا من تنعم الكفار^(٢)، وما تنعم الكفار بمتاع الدنيا إلا من باب الاستدراج لهم.

وجمع قوله تعالى: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} (آل عمران ١٥١) بين المأوى والمثوى في سياق واحد، وبدأت الآية بالمأوى ثم المثوى؛ لأن المأوى كما يقول أبو حيان هو "المكان يأوي إليه الإنسان، ولا يلزم منه الثواء؛ لأن الثواء دال على الإقامة فجعلها مأوى ومثوى"^(٣) .

وفي جعل النار مآوهم بعد أن جعلها مأوهم - كما يقول أبو السعود - "نوع رمز إلى خلودهم فيها"^(٤)، وبذا يكون أبو حيان ومن بعده أبو السعود أدركا الفرق بين المثوى والمأوى، وهذا يدل كما يقول أبو هلال العسكري "أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني، وعين من الأعيان في لغة واحدة، فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلًا لا يُحتاج إليه"^(٥) .

وكما جمعت الآية بين المأوى والمثوى، جمعت بين نوعين من العذاب سيحلان بالكفار: عذاب دنيوي تمثل في إلقاء الرعب في قلوبهم فالسين في "سنلقي في قلوبهم الرعب" تدل على الوعيد والتهديد بقرب حلول العذاب بهم وتحققه؛ لذا أسند الإلقاء إلى (نا) الدالة على التعظيم للتهويل؛ ولأن مثل هذا الأمر لا يقوى على فعله إلا الله، واختار مناط القلوب لأنها مناط الإحساس فإذا تمكّن الرعب فيها، فلا مجال للإحساس بالأمن والطمأنينة، وهذا عذاب معنوي لا يقل شدة عن العذاب المادي وألمه، ودلت (في) على استغراق الرعب قلوبهم.

(١) السابق، ج ١، ص ٦٣٤ .

(٢) الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ١، ص ٦٣٤ .

(٣) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٣، ص ٨٤ .

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ١، ص ٥٧٧ .

(٥) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبيد الله (٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م): الفروق في اللغة. تحقيق: جمال عبد الغني، مؤسسة الرسالة، ط ١،

٢٠٠٢، ص ١٢ .

ولا تخلو الآية السابقة من تطمين للمؤمنين وتبشيرهم^(١)؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - تعهد بإلقاء الرعب في قلوب الكفار هذا في الدنيا، أما في الآخرة فدلّت الجملة الاسمية "ومأواهم النار" على شدة ما ينتظرهم من عذاب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل على تحقق وقوعه.

وجاء التنذيل "وبئس مثوى الظالمين" متضمناً الذم لمثواهم، وصرّح بذكر الظالمين ولم يقل ببئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ، وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه^(٢) وذلك لاختيارهم الشرك بالله بمحض إرادتهم مع أن سبل الهداية كانت متاحة لهم، ولكنهم آثروا اتباع الهوى، ولعل هذا هو سر افتتاح الآية بوصفهم بالكفار ثم ختمت بوصفهم بالظالمين.

وورد الإيواء في موضع واحد فقط بصيغة الفعل لوصف ما يحاول الكافر فعله يوم القيامة للنجاة بنفسه من عذاب الآخرة كما في قوله تعالى: {يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَبْنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ} (المعارج ١١ - ١٤).

ويتضح مما سبق مجيء المأوى في الآخرة في سياق العذاب أكثر من إطلاقه في سياق النعيم، كما أنه جاء في وصف جهنم بأنها المأوى أكثر مما ورد في وصف النار، كما أن الآيات التي وصفت جهنم بأنها المأوى تضمنت زيادة في العذاب عما ورد في وصف النار بأنها المأوى، كأن يسبق وصف جهنم بأنها المأوى حصول مستحقيها على سخط الله كما في آية آل عمران ١٦٢، أو غضب من الله كما في آية الأنفال ١٦، أو أغلظ عليهم كما في آية التحريم ٩، وسوء الحساب في آية الرعد ١٨، أو كلما خبت زدنهم سعيوا في آية الإسراء ٩٧، مما يعني أن زيادة الإثم اقتضت زيادة في العذاب، وزيادة العذاب اقتضت زيادة في الذم؛ لذا تضمنت الآيات نفسها مبالغة في ذم جهنم كما في "وبئس المهاد" في آية آل عمران ١٩٧، و"ساعت مصيرا" في آية النساء ٩٧، و"بئس المصير" في آيتي التوبة ٧٣ والتحريم ٩. بينما ذُمت النار بوصفها مأوى في قوله تعالى "ولبئس المصير" في آية النور ٥٧. ولما اجتمع المأوى مع المثوى في آية آل عمران ١٥١، خص المثوى بالذم وليس المأوى فلم يقل ببئس المأوى.

وبما أن المأوى يتضمن دلالات إيجابية من مثل: الأمن والطمأنينة ... إلخ نفى الله - سبحانه - وجود ناصر أو معين لمستحقيها أو ملجأ لهم غيرها كما في "وما لهم من ناصرين" في آيتي العنكبوت ٢٥ والجاثية ٣٤ وقوله "هي مولاكم" في آية الحديد ١٥.

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٢، ص ٥٦.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ١، ص ٥٧٧.

المأوى في الدنيا :

لم يرد المأوى بصيغة الاسم في وصف الإيواء الدنيوي وإنما جاء بصيغة الفعل في ثلاثة عشر موضعاً* تتضمن دلالات الأمن والحماية والملجأ، والإقامة المؤقتة وبمجرد تحققها يغادر الآوي المكان، كما في لجوء الفتيّة في قصة أهل الكهف إلى الكهف؛ لأنهم وجدوا فيه مأوى وملاذاً لحمايتهم من بطش قومهم؛ لذا جاء دعاؤهم لله ليرحمهم ويسترهم عن قومهم^(١) مما يعني أن إقامتهم في الكهف كانت مؤقتة بدليل عندما شاء الله - سبحانه وتعالى - إيقاظهم تركوا الكهف بعدم انتهت مهمته، كما يفهم من قوله تعالى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} (الكهف ١٠) وقوله تعالى: {وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا} (الكهف ١٦).

ومما يدل على أن غرض الإيواء الدنيوي في النص القرآني الإقامة المؤقتة قوله تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} (الكهف ٦٣)، فيوشع بن نون يخبر موسى - عليه السلام - كيف دبّت الحياة في الحوت المشوي ثم عاد إلى البحر؛ وذلك عندما كان موسى - عليه السلام - نائماً عند الصخرة^(٢) والذي يعنيننا هنا أن الإيواء إلى الصخرة كان أمراً مؤقتاً، فبعد أن نال موسى - عليه السلام - مبتغاه من اللجوء إلى الصخرة (طلباً للراحة بعد التعب) غادرها ليتابع سيره حيث أراد .

وقد يكون الإيواء مظهراً من مظاهر التكريم كما في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} (المؤمنون ٥٠) فالإيواء إلى الربوة هنا تضمن نوعين من التكريم أولهما: التكريم المادي فالربوة كما يقول ابن عباس " المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات"^(٣) كما أن التفصيل الذي ذكرته الآية في وصف الربوة بذات قرار، وذلك بجعلها " صالحة للاستقرار فيها، بما فيها من مغلات وطاقات وثمار وماء"^(٤) أما الماء المعين فهو الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض^(٥) فهذا التفصيل يبرز طيب الإقامة؛ لتليق بالمكرمين، عيسى - عليه السلام - وأمه؛ ولذلك أسند الله - سبحانه وتعالى - الحدث (الإيواء) إلى نفسه في قوله

* ينظر جدول رقم (٥).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ١٠١.

(٢) الطبرسي، الفضل بن الحسين (٥٤٨ هـ - ١١٥٣) : مجمع البيان، دار مكتبة الحياة ، بيروت، ج ١٥ ، م ٤ ، ص ١٨٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٣٠.

(٤) الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ٦، ص ٥٢٠.

(٥) السابق، ج ٦ ، ص ٥١٧.

(أوينهما) وأسندته كذلك إلى (نا) الدالة على التعظيم والتفخيم؛ لإبراز كمال قدرة الخالق^(١)، الذي يعطي كل ذي قدر قدره.

وثانيهما: التكريم المعنوي الذي لا يقل قيمة عن التكريم المادي، وذلك بجعل لهما منزلة رفيعة، وهذه تشمل كل أشكال التكريم المعنوي. فالتكريم المادي يمهد للتكريم المعنوي ويدل عليه .

وجاء الإيواء في سياق خطاب نوح- عليه السلام- لابنه يحثه على الإيمان قبل فوات الأوان وحلول العذاب، كما كشف عن ذلك قوله تعالى: {قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَّا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۚ وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} (هود ٤٣)؛ وبما أن الإيواء لم يكن لله؛ لذا لم يتحقق الغرض منه، وهو النجاة من الطوفان، كم اتضح من قوله تعالى "فكان من المغرقين".

وكشف قوله تعالى: {قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ} (هود ٨٠) عن مدى حاجة لوط- عليه السلام- إلى الإيواء إلى ركن شديد ليحميه من بطش قومه، وبيّن ابن كثير أن المراد بالركن الشديد الله- عز وجل- كما يفهم من قول الرسول عليه السلام^(٢): ((رحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد فما بعث الله بعده نبيا إلا في ذروة من قومه))^(٣)؛ لذا كان إيواء الله- سبحانه وتعالى- لمحمد- عليه السلام- نعمة من النعم التي امتنّ بها الله عليه في قوله تعالى: {الَّذِي يَجِدُكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ} (الضحى ٦)، فإيواء الله- سبحانه وتعالى- يشمل كل أنواع الإيواء التي يكون اليتيم بأمس الحاجة إليها من الرعاية والحنان والحماية والاعتناء بشأنه.... إلخ، والغرض من ذكر الإيواء في هذا السياق "تقوية قلبه عليه السلام، وتشجيعه على السير في طريقه التي اختارها الله"^(٤).

ويأتي الإيواء للدلالة على الضم والاحتواء، وتبعا لذلك تأتي الطمأنينة والحماية كما فعل يوسف- عليه السلام- مع أخيه ثم أبويه عندما أتوا إلى مصر كما صور قوله تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۚ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (يوسف ٦٩) وقوله تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} (يوسف ٩٩) فهم غرباء في مصر؛ لذا جاء إيواء يوسف- عليه السلام- لهم ليزيل ما قد يجده الغريب في

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٩، ص ٥٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٥٩٦ .

(٣) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م) : الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تحقيق: محمود محمد حسن

نصار، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١، ٢٠٠٠م، ٤م، ٤ج، كتاب تفسير القرآن باب (١٣) ومن سورة يوسف رقم الحديث ٣١١٦

(٤) الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ١٠، ص ٥٠٨ .

أول نزوله إلى بلد جديد، وأبرزت هذا المعنى عبارات التطمين التي قالها يوسف -عليه السلام- لأخيه ولأبويه.

وتضمن هذا المعنى أيضا الإيواء في قوله تعالى: {تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} (الأحزاب ٥١) في خطاب الرسول -عليه السلام- عندما خيره الله - سبحانه وتعالى - بين إيواء نسائه أو تركهن.

أما قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (الأنفال ٢٦) فقد قابل بين حال المؤمنين قبل الإسلام، وقبل غزوة بدر، وحالهم بعد أن غمر الإيمان قلوبهم، وبعد تحقيق النصر على المشركين، فحالهم كما وصف قتادة بن دعامة السدوسي: "كان هذا الحي من العرب أذل الناس، وأشقاهم عيشا، وأعراهم جلدا، وأبينهم ضلالا، يؤكلون ولا يأكلون، فمكّن الله لهم في البلاد، ووسّع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكا"^(١) وجاءت الجملة الاسمية "أنتم قليل مستضعفون في الأرض" لتدل على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيهم^(٢) كما أن قوله تعالى "تخافون أن يتخطفكم الناس" رسم صورة دقيقة لحالة الرعب والتشتت الناتجة عن قتلهم وضعفهم بحيث باتت الأيدي تمتد لتقضي عليهم، ثم جاءت الصورة المقابلة التي تفيض رضا وطمأنينة وأمنا متمثلة في قوله تعالى "فآواكم" فالإيواء يشمل الحماية والرعاية المادية، والأمن النفسي الذي غمرهم بفضل ذلك الإيواء، وتدرجت الآية في بيان صور النعيم التي حلت بهم تباعا، فبعد الإيواء جاء التأييد الإلهي الذي لولاه لما تحقق النصر، ثم الرزق من الطيبات، فشتان بين حالهم قبل الإيواء وحالهم من بعده؛ لذا ختمت الآية بقوله تعالى "لعلكم تشكرون".

وأبرز قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الأنفال ٧٢) وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الأنفال ٧٤) أهمية الإيواء الذي قدّمه الأنصار للمهاجرين من مكة مما رفع من شأنهم وجعلهم جميعا في مرتبة واحدة؛ لذا استحقوا وصف "المؤمنون حقا" والمراد بهم "الكاملون في الإيمان، المتحققون في مراتب

(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٥٧٣.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٩، ص ٣٠٨.

الإحسان^(١) ينتظرهم قبول توبتهم وغفران ذنوبهم؛ لذا جاءت الجملة الاسمية " لهم مغفرة ورزق كريم؛ للدلالة على تحقق هذا الأمر فيهم، كما أن تقديم الجار والمجرور " لهم " يوحى باختصاصهم بمغفرة ذنوبهم، وفي هذا بث للطمأنينة في أنفسهم، ولهم مزيد من التكريم المتمثل في " الرزق الكريم " والمراد به " الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً، لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسأم لحسنه وتنوعه " ^(٢) هذا ما يفهم من وصفه برزق كريم على وزن فعيل، كما أن الحديث عن الرزق متناسب مع سياق الجهاد والإنفاق والهجرة والإيواء والنصرة، فهذه المواطن تقوم على العطاء؛ لذا قابل الله- سبحانه- عطاء المؤمنين بعطاء أعظم وأكرم من عطائهم^(٣) وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان".

النتائج

ومما سبق يتضح أن :

المأوى في القرآن الكريم أكثر وروداً من المثوى بدليل أن الإيواء ورد في ستة وثلاثين موضعاً، بينما ورد الثواء في أربعة عشر موضعاً. وبما أن المثوى يقتضى الإقامة الطويلة، لذا أطلق على مكان إقامة غير المؤمنين في الآخرة، للإشعار بخلودهم في النار، وطول مكوثهم، واستمرار عذابهم. ولم يطلق المثوى على الجنة وهي مكان إقامة المؤمنين في الآخرة، لأن إقامتهم فيها إقامة طويلة لا خروج منها، فلا أحد يدخل الجنة ثم يخرج منها، لأن الآخرة دار جزاء وليس دار عمل كما هو شأن الدنيا.

أما الكفار فأطلق على مآلهم في الآخرة مثوى للقضاء على أي أمل لهم بالخروج من النار، أو النجاة من عذابها، فهي مقرهم الأبدي؛ لذا كان عليهم في الدنيا إعداد أنفسهم لهذا المصير الذي ارتضوه لأنفسهم بمحض إرادتهم.

ومع أن المأوى أطلق في القرآن الكريم على مآل المؤمنين وغيرهم في الآخرة كما اتضح من جدول رقم (٥)، فإن إطلاقه على مآل المؤمنين كان في ثلاثة مواضع فقط، وفي تسعة عشر موضعاً في مآل غيرهم، وربما يعود ذلك لأن إطلاق المأوى على مكان إقامة المؤمنين ينسجم مع الدلالة اللغوية للإيواء حيث يتضمن الأمن والحماية والطمأنينة والسكن والظل .. الخ، فكل هذه المعاني والدلالات متحققة في الجنة؛ لذا ذكرها ثلاث مرات أغنى عن تكرارها في مواضع أخرى، فالدلالة

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٤، ص ٨٨.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤٣٦.

(٣) قطب، سيد، في ظلال القرآن. ط ٢٦، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧، ج ١٠، ص ١٥٦٠.

هي هي لا تتغير، بينما إطلاق مأوى على النار أو جهنم فهذا يتناقض مع الدلالة اللغوية للإيواء- كما اتضح سابقاً- فعندما يتحول المكان الذي يُظن فيه الراحة والطمأنينة والرضى .. الخ، إلى عذاب فهذا كسر للمتوقع، وفيه الخسران المبين، والإحساس بخيبة الأمل، ويكون العذاب أشد، فالكافر يوم القيامة يبحث عن مأوى له أي مأوى ليقية من العذاب، وما ينتظره في النار، وإذا به يعثر على المأوى، وتأتي المفاجأة الصادمة له أن مأواه النار أو جهنم أو الجحيم، عندئذ يتحقق فيه قوله تعالى: {وَوَيْلٌ مِّنَ الْمَأْوَىٰ لِلْمَؤْمِنِينَ الَّذِي كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عِزٌّ وَكَرِهَتْ لَهُمْ مَا شَاءَ الْأَعْدَىٰ} (الواقعة ٤٣ - ٤٤). فحتى الظل يصبح مصدراً لعذابه وألمه، وعندئذ يدرك حقيقة أن لا ناصر له من النار فهي مولاه كما قال سبحانه وتعالى: {مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (الحديد ١٥).

وبما أن المأوى يحتمل الإقامة المؤقتة؛ لأن الإيواء مرتبط بغايته فإذا تحققت الغاية منه يمكن تركه أو مغادرته؛ لذا حينما أطلق المأوى على الجنة عرّف كما في جنة المأوى، وجنات المأوى، والجنة هي المأوى، للإشعار بأن الإقامة فيها دائمة، ولا خروج منها؛ لذا قصر الإيواء عليها لأنه لا مكان لإيواء المؤمنين غيرها، ونعم المأوى .

ولعل تكرار إطلاق المأوى على مكان إقامة غير المؤمنين في الآخرة، من باب التأكيد على أنها مأوى للكفار، وتأكيد خلودهم فيها؛ ولالإيحاء بأنه لا سبيل لمغادرتها.

وخلاصة القول إن المأوى في القرآن الكريم جاء في مواضع لا يمكن للمثوى أن يسد مسدها، فكل منهما جاء في موضعه الخاص به، وهذا ما كان الزركشي قد تنبّه إليه بقوله "مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلافات المقامات، وذكرها في كل موضع ما يلائمه، ووضع الألفاظ في كل موضع ما يليق به، وإن كانت مترادفة حتى لو أبدل واحد منها بالآخر ذهبت تلك الطلاوة، وفاتت تلك الحلاوة"^(١). وهذا ما أثبتته بنت الشاطي بقولها: "شهد التتبع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها، أن يستعمل اللفظ بدلالة معينة لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر، في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عدداً قلّ أو أكثر من الألفاظ"^(٢).

واتضح أيضاً أن النص القرآني يوظف الجمل الفعلية عند الحديث عن الأعمال التي يقوم بها الناس في الدنيا مؤمنهم وكافرهم؛ لأن الدنيا دار عمل، وبناء على هذا العمل يأتي الجزاء والثواب معبراً عنه بالجمل الاسمية لدلالاتها على الثبات والديمومة والاستقرار؛ فإنه لا عمل في الآخرة وإنما حساب وجزاء.

(١) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار

الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ج ٢، ص ١١٨ - ١١٩.

(٢) عبد الرحمن، عائشة، الإعجاز البياني للقرآن، ط ٢، دار المعارف، مصر، ص ٢١٤ - ٢١٥.

كما أن النص القرآني يستعين بالفعلين الماضي والمضارع ليدل على الاستغراق الزمني، فالناس في عمل مستمر إلى أن يفضي بهم إلى جنة أو نار. ووصف النص القرآني بعض المشاهد مما سيحدث في لحظة الموت أو في الآخرة بالفعل الماضي للدلالة على تحقق هذا الأمر ووقوعه كما وصف النص القرآني، كما في محاوراة الملائكة للذين يموتون وهم ظالمو أنفسهم بقولهم كنا مستضعفين في الأرض، أو في محاوراة الملائكة للداخلين إلى النار لملاقاة مصيرهم المحتوم.

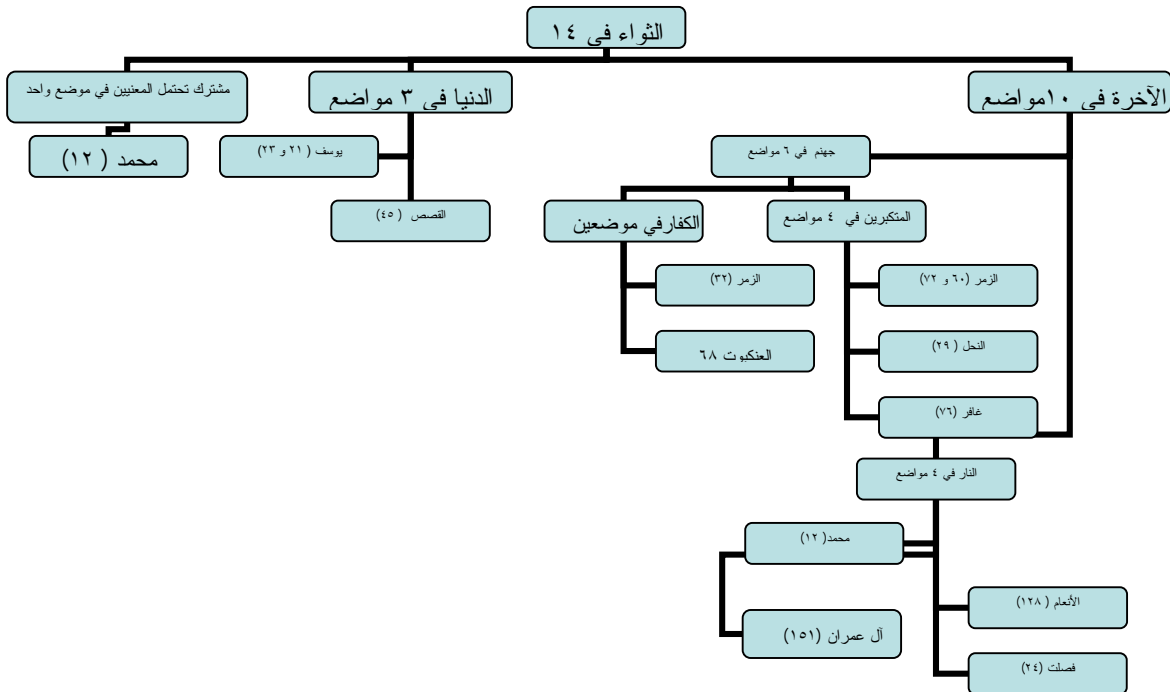
جدول (١)

عدد مرات الورد	الإيواء /المأوى ٣٦	الثواء / المثوى ١٤
صيغة الفعل	١٤	-
صيغة الاسم	٢٢	١٤
الدنيا	١٣	٣
الآخرة	٢٢	١٠
مشترك (دنيا / آخرة)	١	١

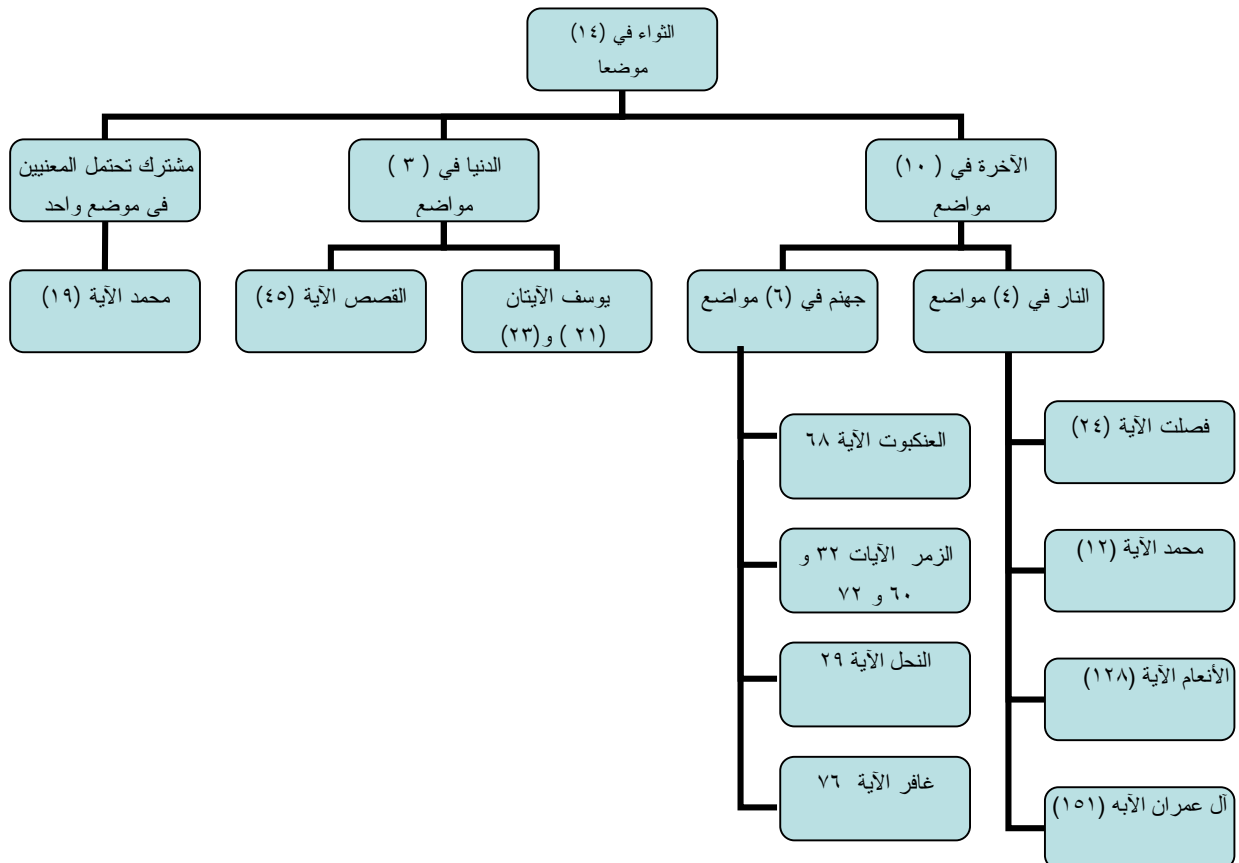
ملاحظات :

الإيواء/المأوى في القرآن أوسع في الدلالة وأشمل بدليل عدد مرات الورد، كما أنه ورد بصيغة الفعل وبصيغة الاسم، ودلت صيغة الاسم على المأوى في الآخرة لدلالاتها على الثبات والاستقرار والديمومة، بينما جاء بصيغة الفعل في وصف الأعمال الدنيوية التي اقتضت الإيواء. اقتصر المثوى في القرآن الكريم على وصف الإقامة الطويلة مع الاستقرار، سواء في ذلك المثوى في الدنيا أو المثوى في الآخرة.

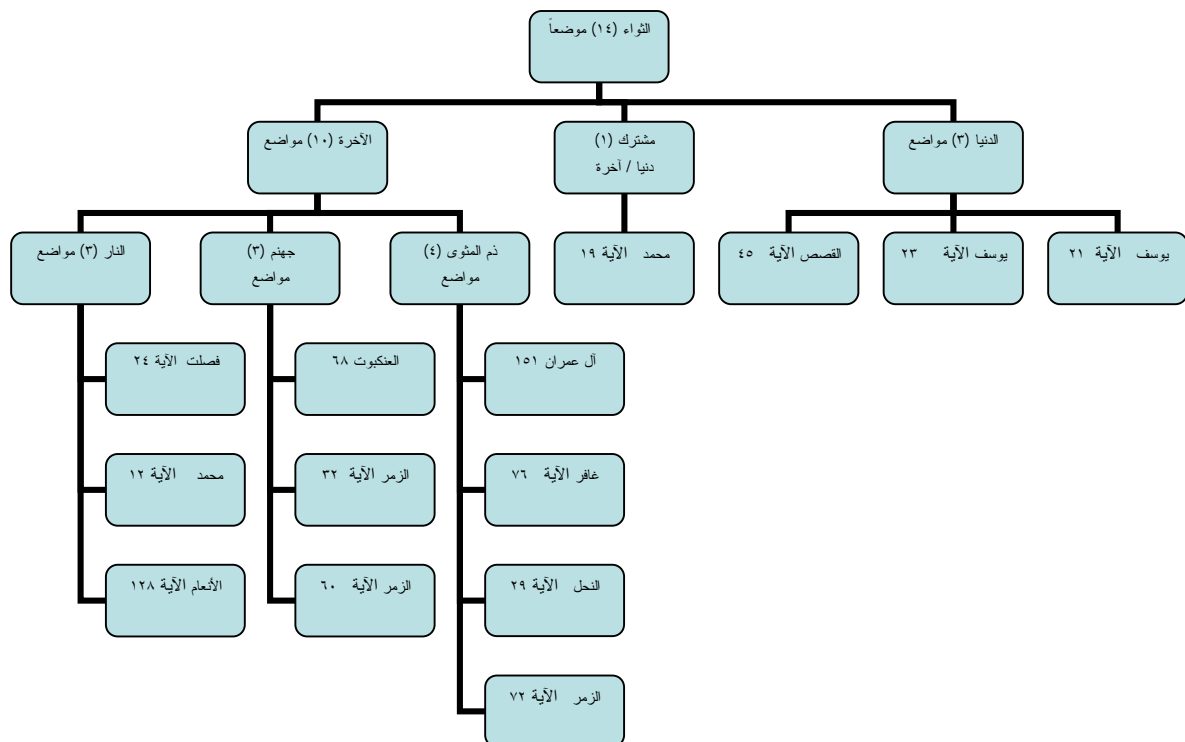
جدول (٢)



جدول (٣)



جدول رقم (٤)



جدول رقم (٥)

